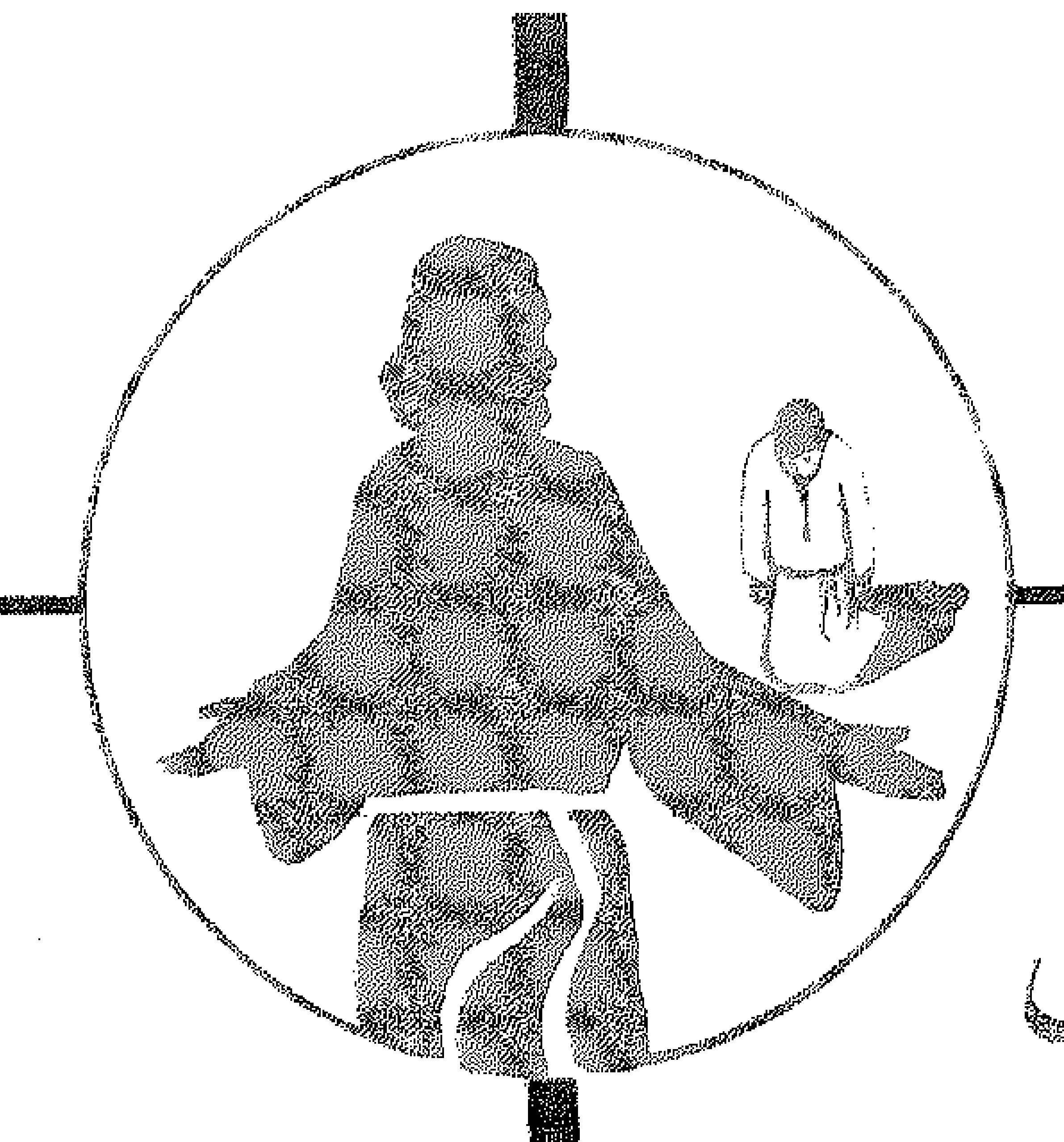


سلسلة كتب الموضوعات الكتابية

الصليب والابن الضال

الصليب والابن الضال

بقلم
عاموس عبد المسيح

نقله الى العربية
القس باقي صدقة جرجس



طبعة ثانية

صدر عن الثقافة المسيحية ص . ب ١٣٠٤ ــ القاهرة

 ١٠/٢٣٧ (أ) (س ٧٣ ــ ٨٦) ٥ ــ ٧

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٦/٣٩٣٧

طبع بمطبعة المجد الحديثة ت : ٩١٣١٥٤

إهـــداء

إلى الأستاذ الشيخ نجيب ابراهيم

الذى يشرق فى قلبه نور المسيح الذى لا يدركه الظلام .. والذى كانت قدوة حياته بركة كبيرة لإرشادى فى قلب كثير من الظلمات ...

القس عاموس عبد المسيح

فى هذا الكتاب

تمهيد

يقول غير المسيحيين : «لقد حرف المسيحيون رسالة المسيح . فإن قصة الابن الضال تدل على أن الصليب ليس لازما للغفران . إذ أننا نجد الابن يعود إلى بيت أبيه ، ونجد الأب يرحب بالابن ، دون أن يكون هناك صليب أو تجسد ، وعندما نجرد المسيحية من الصليب أو المخلص فان رسالة المسيح تكون مقبولة جداً بالنسبة للديانات الأخرى» .

. وإذا كنا نحن المسيحيين نعتبر المعنى المتضمن فى قصة الابن الضال هو «البشارة فى الانجيل» ، فكيف يمكن إذاً أن تكون هذه القصة — كما تبدو — خالية من الصليب ؟ وبماذا يستطيع المسيحى أن يجيب على هذا التحدى ؟ وإذا كان الصليب حتمياً للغفران ، فلماذا لم يرد ذكره فى هذه القصة ؟ .

وقد تحدثت كثيراً مع رعاة وشيوخ وفلاحين فى مختلف الأماكن التى خدمت بها عن الأصحاح الخامس عشر من انجيل لوقا وعما يعنيه بالنسبة لمحيط القرية وبيئتها وقد اكتسبت من هذه الأحاديث رؤى جديدة ملهمة عن المعانى العميقة المتضمنة فى هذا الأصحاح .

وهناك اعتبار آخر كان له أثر كبير فى تفكيرى ، وهو أن الكتابة النثرية عادة تنقل إلى عقولنا أفكاراً معينة يشملها النص المكتوب . ولكن ماذا عن المضمون العاطفى ؟ إن العناصر العاطفية المكونة لقصة هذين الابنين مهمة جداً ، ويتحتم مراعاتها واعتبارها . ومع ذلك فهما مرتبطان جداً بالحياة الريفية فى القرية .

ولا يفوتنا أن نذكر أن المسيح كان يتحدث إلى جماعة من القرويين فى بيئة قروية فى الشرق الاوسط . لذلك من المهم جداً أن نضع فى اعتبارنا مشاعر ومفاهيم أولئك الناس حتى يمكن أن نفهم المثل فهماً كاملا . فهناك أشياء كثيرة يشعر بها كل واحد ويفهمها دون حاجة إلى شرحها والتعبير عنها . وعلى سبيل المثال كان كل واحد فى البيئة التى كان يسوع يتحدث فيها يعرف أن التأدب فى معاملة الأب أو مخاطبته أهم بكثير من طاعته . ولكن يسوع لم يوافق على ذلك . ولذا نراه يقص مثلا قصة ولدين يبدو الولد الأفضل فيها بكل وضوح أنه الولد المطيع مع أنه غير مؤدب (مت ٢١ : ٢٨ — ٣٢) فإذا كنا لا ندرك المشاعر والاتجاهات الخفية لأهل الريف ، فاننا سنعجز كلية عن فهم الطبيعة الثورية التى تتسم بها قصة المسيح .

وتكاد حياة الريفى فى الشرق الأوسط تكون ثابتة على توالى السنين والعصور دون أن تتغير فى شيء . وقد وجدت مؤخراً بعض الفتيات فى القرى المنعزلة يعملن عرائس من الطين قريبة الشبه جداً بما كان يعمل فى العهد القديم . بل إن الكثير من أنماط الحديث والملابس والتقاليد العائلية لا تزال باقية كما هى فى إصرار وعناد . وقد كتب المرحوم الأب هنرى عيروط فى دراساته المشهورة عن انثروبولوجيا الفلاح المصرى فى كتابه «الفلاحين» — يقول : «لقد غير الفلاحون سادتهم ، ودينهم ، ولغتهم ، ومحاصيلهم ، ولكنهم لم يغيروا أسلوب حياتهم . ومع أن العنف والصدمات المتعاقبة غيرت شعوباً بأكملها ، لكن الفلاحين وقفوا صامدين كالجرانيت ... ولا يزالون إلى اليوم محتفظين بنفس تقاليد الزواج والجنازات التى رواها عنهم المؤرخون القدماء والمحدثون ...» .

ويكاد كل من أتيحت له فرصة العمل فى ريف الشرق الأوسط أن يشهد بنفس الحقيقة — وهى تأصل روح المحافظة فى نفوس الريفيين . بل إن أحسن ما يمتدح به رجل ريفى — إلى يومنا هذا — أنه رجل محافظ على التقاليد . ونتيجة لذلك كله يمكن القول بأن مواقف أو وجهات نظر الريفيين هى غالباً

مغرقة فى القدم إلى ماقبل عصر أبرام .

عندما يرسم فنان مسيحى عظيم من اليابان صورة لمريم العذراء والطفل يسوع فإن ملامح الرسم ستكون يابانية . فاذا أصر أحدهم على الإلتزام بملامح معينة لقلنا له إن رسم الأشخاص قد يحرّف أو يشوّه بسبب إختلاف المجتمعات والحضارات . ومع ذلك فإن الصورة تعبر عن شيء أساسى وذات معنى . حقاً إن الملامح اليابانية هى التي تعطى الصورة معناها ، وبالمثل فإن فهمنا للكتاب المقدس وإدراكنا لمعانيه يتأثر باختلاف مجتمعاتنا وحضاراتنا . فإذا لم يكن ممكناً أن نتفادى هذه الحقيقة فلماذا إذاً لا نحاول أن نستعين بدراسة ظروف مجتمع ريفى معاصر يكون أقرب ما يكون إلى ظروف الحياة الريفية فى فلسطين فى القرن الأول ؟ ومع أننا بذلك قد لا نتمكن من أن نقدم صورة غير مشوهة — كما فعل ذلك الفنان اليابانى بصورة العذراء ، ولكننى أثق أن مجرد التأمل فى مجتمع ريفى محافظ فى الشرق الأوسط سيكون فى حد ذاته عاملا مساعداً لإدراك كثير من الحقائق الكتابية . ولم أحاول أن أضمن هذا الكتاب شيئاً من آراء المفسرين أو الناقدين ، ولكننى حاولت أن أسلط نوراً جديداً حول قصة الابن الضال كما وردت فى إنجيل لوقا .

وقد كان يسوع يتكلم باللغة الأرامية . ولست أحاول هنا أن أناقش ما إذا كانت المصادر التى استقى منها القديس لوقا الأمثال يونانية أم أرامية ، مكتوبة أم شفوية ، ومع ذلك فإننى سأشير أحيانا إلى الترجمة العربية للكتاب المقدس ، ذلك لأن اللغة العربية هى لغة سامية ، وهى فى مفرداتها وتركيباتها قريبة جداً إلى كل من العبرانية والأرامية . ومن ثم يمكن القول بأن الترجمة العربية للعهد الجديد هى من جوانب كثيرة قريبة الشبه جداً باللغة التى كان المسيح يتكلم بها .

ويوجه القائمون بالدراسات الكتابية الحديثة إهتماما كبيراً إلى دراسة الصيغ المختلفة للكلام . ومن هنا تكون معرفة صيغ الكلام الشائعة بين سكان الريف

ذات أهمية بالغة فى المساعدة على إلقاء المزيد من الضوء على موضوع دراستنا .
وسوف يجد القارىء بعض الإشارات إلى ذلك فى هذا الكتيب .

وقد ظل الخط العربى فى الشرق الأوسط فناً معروفاً لأكثر من ألف سنة .
ولذلك حاولت فى مستهل كل فصل أن أقدم الآية مكتوبة بخط مميز ومعبر أيضاً .

القس عاموس عبد المسيح

وقال إنسان
كان له ابنان

لوقا ١٥

الفصل الأول

الحمل المبهج

لوقا ١٥ :١-١٠

إفرحوا معى
هذا يقبل خطاة

المسيح هنا فى طريقه إلى أورشليم ، وقد بلغ تذمر الفريسيين حداً يهدد بالخطر ، وينذر بالسوء .. وكانت شكواهم أن «هذا الإنسان يقبل الخطاة» . وفى اللوحة المبينة أول هذا الفصل نجد أن كلماتهم تكشف عما بداخل نفوسهم . فبإضافة خطين للكلمتين الأولى والأخيرة يبدو الخطان وكأنهما عمودان فى مبنى . وقد كان الفريسيون يعتبرون أنفسهم أعمدة البيت الحقيقى لإسرائيل . ويشير هذان الخطان إلى غلظة الفريسيين وخشونتهم ووقوفهم كحجر عثرة فى طريق عودة الخطاة إلى يسوع .

وفى قلب شكواهم السوداء نرى الصيحة المفتوحة البهيجة التى هتفَ بها الراعى السعيد : «افرحوا معى» . وكأن المسيح ، على لسان الراعى ، يدعو الفريسيين إلى أن يملأوا قلوبهم بفرحة الترحيب بالخاطىء العائد إلى حظيرة الشركة معهم .

«وكان جميع العشارين والخطاة يدنون منه ليسمعوه فتذمر الفريسيون والكتبة قائلين هذا يقبل خطاة ويأكل معهم . فكلمهم بهذا المثل» .

كانت العواصف العنيفة تتجمع بسرعة عند بحر الجليل . ولم ينج منها أحياناً حتى البحارة الموسميين مثل بطرس ويوحنا . ويستهل الأصحاح الخامس عشر من إنجيل لوقا بعواصف كانت تنذر بسوء أشد من الرعد الذى كان يدوى عند البحيرة ، فإن الكيان الدينى فى ذلك الوقت كان يشعر بالقلق البالغ إزاء الخطر الذى كان يهدده ممن كانوا يعتبرونه صاحب البدع . وعندما تحدث يسوع بهذه القصص كان هو بنفسه فى الطريق إلى أورشليم ليدع العاصفة الكبرى تتفجر لتصب هياجها ونقمتها على جسده المتعب لتمزقه على الصليب .

ومما يجدر ذكره هنا ما جاء فى لوقا : ٩ : ٥١ «وحين تمت الأيام لإرتفاعه ثبت وجهه لينطلق إلى أورشليم» . وبعد ذلك نجد مجموعة كبيرة من التعاليم التى يمكن اعتبارها بمثابة «وثيقة السفر» . ويأتى الأصحاح الخامس عشر من إنجيل لوقا فى قلب هذه المجموعة من التعاليم . ومن ثم فان الأمثال الواردة هنا يجب أن تفهم فى ضوء هذه الحقيقة ــ وهى أن المسيح كان قد ثبت وجهه لينطلق إلى أورشليم .

ويتجه بنا هذا الأصحاح بقصصه الثلاث البسيطة نحو ذروة تصل إلى قمة التوتر . ولكن لما يصل التوتر إلى درجة لا يمكن تحملها إذا بالذروة نفسها تفقد ولا يذكرها المسيح صراحة . ولا يتضح لنا كل شيء إلا إذا كنا نضع فى أذهاننا نوع الجمهور الذى كان يتحدث إليه يسوع ، وموضوع القضية التى جاءوا بها شاكين يسوع . فقد كان الجمهور جماعة من الفريسيين والكتبة ، أى جماعة «الأبرار» فى المجتمع . وكانت شكواهم أن المسيح «يقبل خطاة ويأكل معهم» . وهنا نرى فى هذا المشهد ثلاثة أطراف : الأبرار ، وغير الأبرار ، والمسيح . ويمكن أن نعتبر الأعداد العشرة الأولى بمثابة تمهيد أو استهلال ، يظهر فيها الخطاة والمسيح فقط . وفى العدد الحادى عشر يظهر فى المشهد جماعة «الأبرار» ممثلين فى شخص الإبن الأكبر .

العشارون والخطاة

كان اليونانيون والرومان يجمعون الضرائب عن طريق جماعة من الأفراد الذين كانوا يشترون من الحكام حق جمع الضرائب فى مكان معين . وفى معظم الأحيان كان هؤلاء الأفراد يفرضون المبالغ التى يريدونها ويجمعون كل ماكانوا يستطيعون جمعه . وكانوا ملزمين بحكم اتفاقهم مع السلطات أن يوردوا لها مبالغ معينة ، ثم كانوا يحتفظون بالباقى لأنفسهم . وكان هؤلاء الأفراد فى أغلب الأحيان من الأمم الوثنيين . وقد كانوا بدورهم يستأجرون (فى فلسطين) أناساً محليين ليقوموا بعملية تحصيل المال نيابة عنهم . ولاشك أن عملية كهذه ، عندما تمارس على هذا النحو ، ومن أناس غير مدققين ، كان يسودها الكثير من الإكراه والمحاباة والمظالم .

وفضلا عن ذلك فإن فلسطين فى القرن الأول كانت مستعمرة يحكمها الرومان المستعمرين ، ومن السهل أن نتصور مقدار الكراهية التى كان يشعر بها الناس هناك نحو كل من يتعاون مع المستعمر . فليست هناك تهمة يمكن أن تلصق بإنسان ما أشنع أو أبشع من أن يكون «من عملاء الاستعمار» . وعندما تقترب إحدى المستعمرات من نقطة اشتعال الثورة على المستعمر فإن الكراهية للعملاء تزداد حدة وشدة . وفجأة يأبى الشرف الوطنى إلا أن يلفظ هؤلاء العملاء ويحطمهم بعد أن يكون الصبر على احتمالهم قد نفذ .

وفى أثناء وجود المسيح فى فلسطين كانت العناصر الوطنية فى اليهودية والجليل تزداد قوة وتماسكا . وكانت البوادر تشير إلى قرب اشتعال الثورة . وكان أى تعاون مع روما أو مع عملائها الذين يجمعون الضرائب لها يعتبر بكل تأكيد خيانة وطنية وخروجاً على جنسهم ودينهم .

ونحن نرى فى الإنجيل أن لقب «عشارين» أو جامعى الضرائب ، يذكر عادة

مقروناً بجماعة أخرى ، كان الناس ـــ والفريسيون منهم بوجه خاص ـــ ينظرون اليهم بازدراء وبغض لا يقل عما يضمرونه للعشارين . فنراهم يذكرون مع «الخطاة» (مت ٩ : ١٠و ١١ ، مر ٢ :١٥ ، لو ٥ : ٣٠ ، مت ١١ : ١٩ ، لو ٧ : ٣٤) . و «الزوانى» (مت ٢١ : ٣١ ، ٣٢ ، لو ١٨ : ١١) ، وبالطبع أيضاً مع «الوثنيين» (مت ١٨ : ١٧) . إلا أن الفريسيين كانوا فى معظم الأحيان يقرنون العشارين «بالخطاة» . وقد كانت كلمة «خطاة» فى مفهوم الفريسيين تعنى «النجسين» و «كاسرى الناموس» و «أصحاب الأخلاق الوضيعة المنحطة» بوجه عام ، أو باختصار ، كل من كانوا يدينونه . ويستعمل لوقا كلمة «خطاة» ثلاث عشرة مرة وهو يعنى بها بوجه عام ذوى الأخلاق الوضيعة السافلة . وهنا نراه يقتبس قول الفريسيين ، وهكذا يحتمل أن كلمة خطاة هنا تتضمن معنى النجاسة .

« ... يدنون منه»

«إن المسيح يرحب بالخطاة» !
هذا هو موضوع القضية .

«فتذمر الفريسيون والكتبة قائلين»

إن كلمة «تذمر» هنا هى نفس الكلمة المستخدمة فى الترجمة اليونانية للعهد القديم «لتذمر» الشعب المتكرر ضد موسى وهرون فى البرية . (خر ١٥ : ٢٤ ، ١٦ : ٢و ٧و ٨ ، ١٧ :٣ ، عد ١٤ :٢ ، ١٦ :١١) . ولكنها لاتظهر فى العهد الجديد سوى مرتين : هنا وفى لوقا ١٩ : ٧ . وفى هاتين المرتين نراها مستخدمة على لسان الفريسيين وهم يشتكون ضد المسيح . ويمكن أن تعنى هذه الكلمة أنهم تذمروا بينهم وبين أنفسهم ، أو أنهم أشاعوا تذمرهم بين الشعب . ومن هنا يتضح لنا كيف نجحوا فى إشاعة التذمر والشكوى حول أعمال يسوع ، وكيف بلغ هذا التذمر أقصى مداه فى صيحة

الكراهية والحقد التى صرخت بها الجموع فيما بعد قائلة «اصلبه» .

« ... هذا يقبل الخطاة ويأكل معهم»

إن كلمة «يقبل» فى اليونانية يمكن أن يختلف معناها باختلاف البدايات التى تضاف إليها . فكلمة(dechomai) باليونانية معناها «يقبل» . أما الكلمة المستعملة هنا فهى كلمة(pros-dechomai) ، التى تعنى «يرحب بشخص فى صداقة وشركة» والكلمة الأولى تعنى الاستعداد للجلوس مع شخص والتحدث اليه . أما الكلمة الثانية فهى تعنى قبول هذا الشخص كأخ . ومن السهل فى أى عصر أن تكون لك اتصالات ومعاملات مستمرة وطويلة مع شخص مادون أن تقبله كأخ له حق الشركة الكاملة معك . ويستخدم الرسول بولس هذه الكلمة (pros- dechomai) للترحيب بشخص كأخ فى الرب (رو ١٦ :٢ ، فى ٢ :٢٩) ، كما نجد هذه الكلمة أيضاً مستخدمة فى أقوال الرب يسوع حسب ماورد فى إنجيل مرقس : «من قبل واحداً من أولاد مثل هذا باسمى يقبلنى ، ومن قبلنى فليس يقبلنى أنا بل الذى أرسلنى» (مر ٩ :٣٧) .

وقد كانت التهمة الكبرى التى ظن الفريسيون أنهم يلطمون بها يسوع هى أنه كان «يأكل» مع الخطاة . وكانوا يعتقدون أنه بأكله مع الخطاة إنما كان يدنس نفسه ويلوثها ، ولكن هناك ماهو أكثر من ذلك . فإن الأكل مع إنسان بحسب تقاليد الشرق الأوسط يعتبر بمثابة قبول كامل من الضيف للمضيف . وإذا كان الضيف رجل دين فإن المضيف يعتبر وجوده فى البيت بركة كبيرة له . وكانت هذه هى نفس المشاعر المتبادلة بين المسيح وبين طبقات من الناس كانت مطرودة ومنبوذة من جماعة «الأبرار» المزعومين .

وقد احتدم جدل كبير بين بطرس وبولس حول مسألة الأكل هذه . ويذكر بولس وجهة نظره فى هذا الأمر فيقول فى غل ٢ : ١١ ،١٢ «ولكن لما أتى بطرس إلى إنطاكية قاومته مواجهة لأنه كان ملوماً . لأنه قبلما أتى قوم من عند

يعقوب كان يأكل مع الأمم ، ولكن لما أتوا كان يؤخر ويفرز نفسه خائفا من الذين هم من الختان» . وواضح هنا أن موضوع الجدال كان أن بطرس كان يأكل مع الأمم غير المختونين . فالصداقة إذاً شيء ، والأكل مع شخص شيء آخر .

«فكلمهم بهذا المثل قائلا»

ونلاحظ هنا أن لوقا يقدم ثلاث قصص باعتبارها مثلا واحداً ، وهو على أية حال قد فعل الشيء فى أصحاح ٥ : ٣٦ — ٣٩ وفى أصحاح ٦ : ٣٩ — ٤١ . ومن الواضح أنه فى كل حالة ينظر إلى القصص الثلاث باعتبارها واحدة واحدة . وواضح أيضاً أن الذين وجه لهم المسيح حديثه بهذا المثل هم جماعة الكتبة والفريسيين أو أن حديثه هنا ليس إلى جمهور عام بل إلى جماعة معينة من الناس الذين اغتاظوا وهاجوا لأنه كان يرحب بالمطرودين ويقبلهم فى دائرة الشركة الكاملة .

الخروف الضال (ع ٤ —٧)

عدد ٤ : **«أى إنسان منكم له مئة خروف وأضاع واحداً منها ألا يترك التسعة والتسعين فى البرية ويذهب لأجل الضال حتى يجده»** .

لو أنك تحدثت إلى مدير بنك كما لو كنت تتحدث إلى ولد صغير يعمل خادما فإنك بذلك تهين المدير . وإذا تحدثت إلى ملك كما لو كنت تتحدث إلى كناس فى الشارع فإن الملك يغضب جداً . هكذا إذا تحدثت إلى أحد الفريسيين كما لو كنت تتحدث إلى راعى غنم ، فإنك بذلك تهيجه وتغيظه جداً . ومع ذلك فهذا بالضبط هو عين مافعله المسيح . فقد رفض أن يعمل اعتباراً لرتبهم أو مكانتهم التى كانوا يعتدون بها ويعتبرونها كل شيء .

ويتضح موقف المسيح هذا من ناحيتين ، فهو لا يتحدث بلغتهم ولا يناقش

معهم مسألة دقيقة من مسائل الناموس . ولكنه يخاطبهم كما لو كانوا جماعة من القرويين غير المتعلمين ، وهو يقص عليهم قصة ريفية بسيطة لا تتناسب مع ماكانوا يحيطون به أنفسهم من تبجيل وإجلال . ولكن الأسوأ من هذا أنه يضع سامعيه فى مرتبة واحدة مع رعاة الأغنام «النجسين» . وقد بدأت الفريسية كحركة علمانية ، وكان عدد كبير من الفريسيين يشتغلون لكسب رزقهم ، (فمثلا كان بولس صانع خيام) ومع ذلك فقد كان الرعاة يعتبرون فى نظرهم نجسين ، نظراً لاختلاطهم المستمر بالحيوانات . وكان الفريسيون يتجنبون مخالطة الرعاة ومرافقتهم . فكان الفريسى الذى يملك مئة خروف يستأجر راعياً . وكان يفضل أن تضيع كلها على أن يتجول هو وراءها فى البرية . ومن المعروف أن راعى الأغنام فى الشرق هو رجل فقير يلبس جلباباً ويتجول بنفسه وراء أغنامه . ولا يقبل أى رجل متعلم أن يتجول فى البرية لأى سبب من الأسباب . لذلك لم يكن الفريسيون يتوقعون أن يحدثهم المسيح هكذا ، بل كانوا بلاشك ينتظرون أن يسمعوا من المسيح كلاما كهذا : «أى إنسان منكم ، له مئة خروف ، إذا جاءه تقرير يقول إن واحداً منها قد ضاع ، ألا يرسل خادماً للراعى المسئول ويهدده بدفع غرامة كبيرة إذا لم يجد الخروف الضال ؟» .

ويقيم الناس فى الشرق الأوسط وزناً كبيراً لأصل التى ينتسب إليها الفرد . فالناس من الناحية الاجتماعية لا يشعرون باعتبار أو احترام كبير لابن نجار . وإذا حدث أن ابن نجار وقف يتحدث أو يصلى وسط جماعة من المثقفين ، فلابد أنه يبذل كل ما فى وسعه ليستعمل أفضل ما لديه من أسلوب يليق بالسامعين المتعلمين . ولاشك أن الفريسيين كانوا يتوقعون من يسوع تصرفاً كهذا . لذلك شعروا بصدمة كبيرة وإهانة بالغة للطريقة التى خاطبهم بها يسوع .

ويقول يسوع : «**وأضاع واحداً منها**» . وقد تبدو هذه العبارة بالنسبة لنا فى اللغة العربية عبارة محرجة إلى حد ما لأنها لا تستعمل أبداً . إذ أننا فى العادة لا نلوم أنفسنا على أى شيء ، فنحن نقول مثلاً : «لقد فاتنا القطار» بدلاً من أن نقول «لقد تأخرنا نحن عن موعد القطار» . كما يقول الواحد منا : «لقد انكسر الطبق» بدلا من أن يقول : «لقد أوقعت أنا الطبق فكسرته» ، ويقول الواحد منا أيضاً : «ضاع قلمى» بدلا من أن يقول : «لقد أضعت قلمى» . ولهذا كان ينتظر أن يقول يسوع : «إذا ضاع واحد منها» . ولكن يسوع ، بكل وضوح وصراحة يضع المسئولية على الراعى نفسه فيقول : «إذا أضاع (هو) واحداً منها» .

وهل من الحكمة أن يترك الراعى التسعة والتسعين فى البرية — وهو يتركها بكل تأكيد فى حراسة مساعديه وفى مغارة آمنة — ويتجول ساعياً وراء الواحد الضال حتى يجده ؟ لاشك أن رغبة الراعى الملحة هى أن يسعى وراء هذا الواحد ، فإن بحثه عن هذا الخروف الضال حتى يجده سيعطى للتسعة والتسعين الباقية إحساسها الحقيقى بالأمان . أما إذا ضحى الراعى بالخروف باسم المصلحة العامة للأغلبية ، فإن كل فرد فى الجماعة سيشعر بعدم الأمان ، لأنه سيدرك أنه هو أيضاً تافه القيمة ، ويمكن أن يضحى به بالمثل ، فاذا حدث أن ضاع فإنه سيترك تائهاً حتى يموت . إذاً عندما يدفع الراعى ثمناً مرتفعاً ، وعندما يبذل جهداً كبيراً للعثور على الخروف الضال ، فإنه بذلك يؤكد للآخرين حرصه على كل واحد منهم وحمايته له .

ولسنا نعرف كم قضى ذلك الراعى فى بحثه عن الخروف الضال ، لكن أى قروى أردنى يقول إن ذلك يستغرق أياماً من التسلق والتجول فى البرية الوعرة . ومن المؤسف أننا لا نتردد فى دفع أى ثمن لنسترد به شيئاً ضاع منا ، لكننا لانهتم بنفس الجدية والحماس لنربح نفوس الناس الضالين الضائعين ، مع أننا ينبغى أن نفعل ذلك مهما كلفنا الأمر .

عدد ٥ : **«واذا وجده يضعه على منكبيه فرحاً»**

فى اللحظة التى يجد فيها الراعى الخروف الضال ، يكون قد بدأ مواجهة أشق مهمة تنتظره ، وهى إعادة هذا الحيوان الثقيل إلى بقية القطيع . وهى مهمة لا يستهان بها فى مثل هذه المناطق الوعرة . ولكنه يفعل ذلك فرحاً . وربما كان طبيعياً أن يتمنى الراعى فى قرارة نفسه أن يجد الخروف ميتاً أو يكون قد افترسه أسد ، وحينئذ يفعل ماذكره عاموس ، فينزع من فم الأسد كراعين أو قطعة أذن (عاموس ٣ :١٢) ، ويعود بها كبرهان على أنه لم يسرق الخروف ولم يبعه . أما عندما يعثر الراعى على الخروف الضال ، فان مهمة إعادة هذا الخروف إلى الحظيرة تكون قد بدأت . وتختفى هذه الفكرة فى القصة الثانية . ولكنها تعود إلى الظهور بقوة ملحة فى القصة الثالثة ، وهى فكرة مؤلمة جداً إذ فيها نرى حتمية الصليب .

ووضع الراعى الخروف على كتفيه . ويمكننا أن نتصور هذا المنظر بسهولة لأنه مألوف بالنسبة للراعى فى بيئاتنا الشرقية . فلابد أن بطن الخروف كان حول رقبة الراعى ، وأن أقدامه الأربعة كانت مربوطة معاً أمام وجهه . وكان الراعى بهذه الطريقة يستطيع بإحدى يديه أن يتحكم فى الخروف تحكماً كاملا بينما تكون يده الأخرى حرة . وقد كانت الكنيسة الأولى تحب أن تمثل المسيح دائماً بـ «الراعى الصالح» . فهو يبدو دائماً فى الصور والتماثيل ممسكا بخروف حول رقبته على ذلك النحو . كما يوجد فى القسم القبطى من المتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية تمثال من المرمر بالحجم الطبيعى «للراعى الصالح» بنفس الطريقة .

عدد ٦ **«ويأتى إلى بيته ويدعو الأصدقاء والجيران قائلا لهم افرحوا معى لأنى وجدت خروفى الضال»** .

ويعود الراعى إلى القرية ويفرح مع الأصدقاء والجيران . وهذا أمر طبيعى ، فانه يحتمل جداً أن يكون هؤلاء الأصدقاء والجيران هم أصحاب القطيع .

والمعروف فى مجتمع القرية أن البيوت الموجودة فى كل شارع من شوارعها الضيقة تكون مملوكة عادة لعشيرة أو «بدنة» واحدة . و «البدنة» الواحدة فى القرية قد تشمل من عشر إلى عشرين عائلة . وهى تعرف فى مجموعها بـ «بيت فلان» . وتكون ملكية أى شيء عادة ملكية مشتركة بينها جميعاً . لذلك فان خسارة خروف واحد من القطيع هى خسارة تصيب العشيرة أو «البدنة» كلها . ومن ثم فان الجيران الذين يفرحون مع الراعى هم إخوته وأعمامه وأخواله وأولادهم . أى أن العائلة الكبيرة كلها معاً تحزن لضياع الخروف ، ثم تفرح كلها معاً عندما يوجد الضائع . وهكذا الإنسان الضال ، هو خسارة بالنسبة لعائلة الله كلها ، ويجب أن تنوح عليه الجماعة كلها . وعندما يعود «الراعى» بالإنسان الضال ، فان الجماعة كلها يجب أن تستقبله بالهتاف والتهليل .

ولقد كان يجب على الفريسيين ، باعتبارهم القادة الدينيين ، أن يكونوا هم «رعاة إسرائيل» . وفى هذا المثل نجد أن الراعى يفعل أربعة أشياء :

١ ــ فهو يعترف بمسئولية عن ضياع الخروف .

٢ ــ وهو يبحث عن الخروف الضال مهما كلفه الأمر ومهما كانت المشقة .

٣ ــ وهو يفرح بتعب استعادة الضال واسترداده .

٤ ــ وهو يفرح مع الجماعة لنجاحه فى العثور على الضال .

وبهذا يكون المسيح قد وضع أمام الكنيسة فى كل العصور مستوى عالياً رفيعاً من إدراك المسئولية وعظمة الرسالة . ولكننا ، للأسف ، كثيراً ما نقف أمامه مع الفريسيين فى نفس قفص الاتهام .

عدد ٧ **«أقول لكم إنه هكذا يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة» .**

نرى فى هذه الآية الكثير من الحذق الممزوج بالتهكم . فان «الأبرار» الذين

«لا يحتاجون إلى توبة» ليسوا بموجودين . ولن يكونوا موجودين فى السماء وبالتالى فان فرح السماء بهم سيكون شيئاً لا يذكر . وكان ينبغى على هؤلاء الفريسيين أنفسهم أن يتذكروا قول إشعياء «كلنا كغنم ضللنا» . وربما يكون المسيح يشير بهذه العبارة إشارة غير مباشرة إلى تفسير الفريسيين للناموس الذى ورد فيه : «إن الله يفرح عندما يهلك من العالم أولئك الذين يعصونه ويغيظونه» .

وهكذا يبدأ المسيح بمثل الخروف الضال كتمهيد لحديثه . وبحسب المنطق الشرقى يسترسل فى ذكر سلسلة من التوضيحات المماثلة . وإلى هنا ظهرت شخصيتان من الشخصيات الثلاثة المكونة لموضع بحثنا . فقد رأينا الخطاة فى شدة حاجتهم ، كما رأينا المسيح فى استجابته لتلك الحاجة . أما جمهور السامعين فى الجلسة فلم يتمثل بعد .

عدد ٨ — ١٠ «أو أية إمرأة لها عشرة دراهم إن أضاعت درهماً واحداً ألا توقد سراجاً وتكنس البيت وتفتش باجتهاد حتى تجده . وإذا وجدته تدعو الصديقات والجارات قائلة إفرحن معى لأنى وجدت الدرهم الذى أضعته . هكذا أقول لكم يكون فرح قدام ملائكة الله بخاطىء واحد يتوب» .

لا يزال المسيح هنا يتحدث عن المال . وحينما يكون المال هو موضوع الحديث فان صدى الحديث فى نفوس السامعين قلما يكون مشوباً بعقد الرياء والنفاق . ومن المعروف عن المرأة القروية فى الشرق أنها تحمل كل ثروتها على هيئة عملات ذهبية أو فضية تثبتها فى سلسلة وتلفها حول رقبتها . ويشير الناس إلى هذا الذهب عادة باعتباره «بنك النساء» . والحقيقة أنه توجد ملايين الجنيهات «مربوطة» على هذا النحو الذى يعتبر فى الواقع رأس مال معطل عن الإستثمار ، ولكنه يعتبر بالنسبة للمرأة بمثابة ضمان أو تأمين مالى ، حتى إذا حدث طلاق فان هذا الذهب أو الفضة هو كل ما يكون لها . وعندما يعطيها

زوجها هدية فان هذه الهدية تكون عادة عبارة عن عملة أو قطعة ذهبية جديدة تثبتها فى السلسلة التى تلف بها رقبتها .

وقد تكون فى هذا المثل فكرة أخرى . فان المرأة القروية تضع نقودها لمصروفها اليومى فى قطعة من القماش تربطها ربطاً محكماً . والدرهم المشار إليه فى هذه القصة هو عملة يونانية تزن حوالى أربعة جرامات من الفضة . وقد كانت هذه تعادل الأجرة اليومية للعامل ، وربما كانت هذه الدراهم العشرة قد أعطيت لتلك المرأة كمصروف للعائلة لمدة أسبوع ، فربطتهم فى خرقتها الصغيرة . ثم حدث أن العقدة انفكت قليلا فسقط منها درهم . ولابد أنها شعرت بالخزى والندم لأنها لم تربط الخرقة باحكام أكثر ، ومن السهل أن يضيع درهم إذا سقط على الأرض فى بيت قروى ، فأرضية البيت تكون عادة مغطاة بطبقة كثيفة من التراب أو الطين بسبب وجود بعض الحيوانات التى يحتفظ بها القرويون داخل بيوتهم . أما النوافذ فى بيت القرية فهى غالباً صغيرة ومرتفعة لأسباب تتعلق بالأمن . لذلك كانت المرأة تحتاج إلى سراج حتى فى وضح النهار لكى تفتش عن درهمها المفقود .

ومما دفع تلك المرأة إلى التفتيش باجتهاد عن الدرهم أنها كانت تعلم أنها فقدته فى بيتها ، وأن حركاتها فيه محدودة . فان المرأة القروية يمكن أن تبقى فى بيتها أياماً كثيرة دون أن تغادره لأى سبب من الأسباب . ومن الواضح أن هذه المرأة كانت متأكدة أن درهمها كان داخل البيت لأنها لم تغادره .

وقد قصد المسيح بهذا أن يؤكد أن الخاطىء الضال كان موجوداً فى بيت اسرائيل . فلم يكن فى بلد بعيد . وكان من الممكن أن يعثر عليه . لقد كان داخل بيتهم ، وكان جزءاً من ثروتهم . ولو فتش أولئك الفريسيون باجتهاد لأمكنهم أن يجدوه .

ولاشك أن المرأة كانت أكثر مسئولية من الراعى ، وربما كان ممكناً أن يلتمس عذر للراعى ، كأن يقال مثلا إن معه ، على أية حال ، مائة خروف ،

والخراف ــ إلى حد ما ــ لها إرادة فى ذاتها ، والبرية واسعة . لكن هذه المرأة لا تستطيع أن تلوم أحداً سوى نفسها . ولابد أنها كانت طوال بحثها توبخ نفسها مراراً وتكراراً قائلة «ماأغبانى ! لماذا لم أثبت الدرهم فى السلسلة بعناية ودقة أكثر ؟» أو ربما كانت تقول «لماذا لم أربط الخرقة ربطاً محكماً ؟» . ولاشك أن إحساسها بالندم والأسف كان نابعاً من هذا الشعور بالمسئولية التى لا يمكن انكارها . وعندما عثرت على درهمها المفقود طلبت من الآخرين ــ كما طلب الراعى ــ أن يشاركوها أفراحها . فقد كان عثورها على درهمها المفقود حدثاً كبيراً بالنسبة لها يستحق أن تعمل وليمة تدعو فيها صديقاتها وجاراتها ليفرحن معها . وكانت تحكى لهم كيف فقدته ، وكيف وجدته ، وأين بحثت عنه ، وكيف كان شعورها عندما رأته أخيراً وهو يلمع فى النور الخافت للسراج الذى كان بيدها . وكأن المسيح أراد أن يقول إن توبة عشار ضال كان يجب أن تثير فرحاً وابتهاجاً مماثلا .

وهنا ينتهى التمهيد وقد ظهرت على المسرح شخصيتان ، وقبل أن تبرز أمامنا الشخصية الثالثة التى تنذر بالشؤم والسوء ، نجد أنفسنا أمام تدرج مزدوج . ففى القصة الأولى نجد الضال واحداً من مئة ، وفى القصة الثانية نجد الضال واحداً من عشرة ، وفى القصة الثالثة نجد الضال واحداً من اثنين ، هذا من ناحية شخص الضال . أما من ناحية المكان الذى عثر فيه على هذا الضال ، فقد تدرج من البرية الواسعة بالنسبة للخروف الضال ، إلى البيت المحدود بالنسبة للدرهم المفقود . أما بالنسبة للإبنين فقد ضلا وهما داخل دائرة محبة الآب .

ويمكن أن تتضح الشخصيات المشتركة فى الأمثلة الثلاثة على هذا النحو

الشخصيات	مثل الخروف الضائع	مثل الدرهم المفقود	مثل الابن الضال
المسيح (الله المتجسد)	الراعى	المرأة	الأب
العشارون والخطاة (الخطاة غير المتدينين)	الخروف	الدرهم	الابن الأصغر
الفريسيون (الخطاة المتدينون)	-	-	الابن الأكبر

والآن يظهر أمامنا الإبن الأكبر الذى يمثل الفريسيين «الأبرار» بكل ما كان فيهم من ضلال ومروق عن الحق ، وهم يحاولون أن يستتروا وراء ثوب ظاهرى من التدين .

الفصل الثانى

رغبة الموت

لوقا ١٥ : ١١، ١٢

يأبى إعطنى القسم الذى يصيبنى من المال

هنا نرى الابن يطالب بنصيبه فى ثروة العائلة ، بينما أبوه لا يزال حياً . ومعنى هذا أنه يريد أن أباه يموت .

وكنا نتوقع أنه يطالب بميراثه . ولكنه يرفض ذلك ، لأن مطالبته بميراثه تعنى أنه يقبل المسئولية . ولذلك نراه يستبدل كلمة «ميراث» بعبارة طويلة فيها تعقيد ودوران . وهكذا يدل كلامه على التمرد الصارخ . وعندما نقرأ عبارته من أسفل إلى أعلى نجد أنها تتدرج على سلم يصل بنا فى قمته إلى كلمة المال ، الذى يقف هناك — فى أعلى السلم — مكشوفاً ، وفى وضع خطير يهدده بالسقوط والانهيار .

عدد ١١ **وقال «إنسان كان له ابنان»** .

يطلق على هذا المثل اسم «الابن الضال» . ويرى بعضهم أنه يشتمل أساساً على قصتين : القصة الأولى عن ابن أصغر ترك البيت وهجره ، والقصة الثانية عن ابن أكبر بقى فى البيت . ويظنون أن القصة الثانية أقل أهمية من القصة الأولى . ولكن الحقيقة غير ذلك . فإن الآية تقول :

«**انسان كان له ابنان**» . فالإبنان موجودان من بداية القصة ، ولا نستطيع أن نغفل أياً منهما . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ العلاقات المتداخلة بين أفراد الأسرة الثلاثة . ومن نواح كثيرة نجد أن الإبن الأكبر هو المفتاح الذى يشرح لنا هذه العلاقات . وربما كان من الأفضل أن يطلق على المثل اسم «الابنين الضالين» . وتأتى ذروة القصة كلها فى فناء البيت الخارجى حيث يقف الأب يرجو ابنه الأكبر أن يدخل . لكننا يجب أن نفحص علاقات الأخ الأكبر بالتدقيق منذ البداية . فإن كراهيته التى تبرز فى نهاية القصة ليست بلا جذور . بل إننا لو دققنا النظر لوجدنا أنه كانت هناك عوامل معينة سابقة ذات معان على جانب كبير من الأهمية .

عدد ١٢ «**فقال أصغرهما لأبيه يا أبى أعطنى القسم الذى يصيبنى من المال . فقسم لهما معيشته**» .

إن هذا الطلب فى مفهوم مجتمع القرية لا يعنى سوى شىء واحد ، وهو أن الإبن الأصغر يتعجل موت أبيه . فإن تقسيم ثروة الأب لا يتم بالطبع إلا بعد موت الأب . ولا يقسم الأب ثروته أثناء حياته بمحض اختياره إلا فى حالات نادرة جداً . وحتى فى هذه الحالات ، فى ذلك الوقت ، كانت هناك اجراءات قانونية كثيرة تكفل للإبن أن يكون له **حق الملكية** الشرعية دون أن يكون له **حق التصرف** فيما يملك . أى أن الثروة كانت فى هذه الحالات تعتبر ملكا للإبن ، ولكنها كانت لاتزال فى حوزة الآب الذى كان يهيمن عليها وله حق الإشراف الكامل عليها . ومن الواضح أن هذا الوضع كان ينطبق على الإبن

الأكبر فى نهاية المثل . فهناك نسمع الأب يقول : «كل مالى فهو لك» ، ولكن ، فى نفس الوقت ، كان الأب لا يزال يملك السلطان أن يأمر بذبح العجل المسمن . أما الإبن الأصغر فقد طلب حق الملكية وحق التصرف ، وكان له ماأراد . وقد كان من حق الأب أن يلجأ إلى الإجراءات الشرعية لكى يحول دون تحقيق رغبة هذا الإبن ، فإنه من المستبعد جدا ان يجرؤ ابن على ان يطلب نصيبه من ثروة الأسرة بينما أبوه لا يزال حياً . ولاشك أن كل قروى فى الشرق يعرف هذه الحقيقة بالسليقة . وقد سألت عدة أشخاص من قرى متعددة ومن أنحاء مختلفة من الشرق حول هذا الأمر فاتفقت إجاباتهم على هذا النحو :

ـــ هل حدث أن أحداً فى قريتكم طلب من أبيه مثل هذا الطلب ؟

ـــ أبداً .

ـــ هل كان فى مقدور أحد فى قريتكم أن يتقدم بمثل هذا الطلب ؟

ـــ مستحيل .

ـــ وماذا يحدث لو أن أحد الأبناء أقدم فعلا على مثل هذا الطلب ؟

ـــ بالطبع سيضربه أبوه ضرباً مبرحاً .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأن هذا الطلب معناه أنه يريد أن أباه يموت .

وبالطبع ليس لدينا دليل حاسم على أن القروى فى القرن الأول كان يفكر بنفس تفكير القروى فى العصر الحديث . ومع ذلك فإن وجود التفكير السابق لدى القرويين فى كل أنحاء الشرق الأوسط من الجزائر إلى ايران ومن سوريا إلى السودان ، وإجابتهم على تلك الأسئلة إجابة واحدة ، لهو دليل على تعمق أصول هذه المعانى إلى عصور قديمة جداً .

وبعد أن نضع هذه الحقيقة المركزية فى أذهاننا . لنتأمل جيداً فيما تحدثنا به

هذه الآية عن كل شخصية من الشخصيات الرئيسية الثلاث التى ذكرها المسيح فى هذا المثل .

الابن الأصغر

تعرفنا هذه الآية الكثير عن الابن الآصغر .

١ ــ إن مجرد الطلب من البداية يعتبر تمرداً . فهو يتعجل موت أبيه . وربما كان المسيح يريد أن يقول إن ذلك الشاب ، فى تمرده ضد الله ، إنما كان فى الحقيقة يتمنى موت الله .

٢ ــ وهو فى تصرفه هذا مدفوع بكبرياء ذاتية . فهو إذ يصرخ قائلا : «اعطنى القسم الذى يصيبنى» إنما يعنى أن يقول أيضاً : «وليأخذ الشيطان منك مايتبقى» . إنه يريد «حقوقه» . ومن المتعارف عليه فى القرية أن الرجل الفاضل هو الذى «يعطى الحق ويأخذ الحق» ، أى أن الرجل الشريف هو الذى يعطى الآخرين حقوقهم ويطالبهم بالمعاملة بالمثل . فالمعاملة هنا لا تتضمن نعمة أو رحمة . ولا يبذل أى جهد لتحديد أو تقييم هذه الحقوق . وكثيراً ما يرتكب الرجال جرائم القتل «ليأخذوا حقوقهم» . وسنرى فيما بعد أن الأب تسنح له فرصة ليبدأ فى «أخذ حقوقه» ، ولكنه لا يفعل ذلك . بل نراه بالأحرى يفيض بالمحبة غير المتوقعة .

٣ ــ إن الذى تحطم هنا هو العلاقة والشركة ، وليس الناموس أو الشريعة . فقد جاء فى سفر التثنية ٢١ :١٧ أن نصيب الإبن الأصغر هو ثلث الميراث . ولم يحتم الناموس على الإبن أن ينتظر حتى يموت أبوه . ومن ثم فإن هذا الإبن لم يكسر الناموس ، ولكنه ــ بدلا من ذلك ــ كسر قلب أبيه

٤ ــ وهو لم يبد أى اهتمام بمدى الآلام والمتاعب التى سيعانى منها الآخرون فى العائلة بسبب طلبه هذا . فإنه لن يسىء إلى أبيه فحسب ، بل إنه سيسىء إلى العشيرة كلها أيضاً . ذلك لأن ثروة العائلة القروية ليست محصورة فى أسهم

مالية أو سندات أو حسابات توفير ، بل هى متضمنة أو موزعة فى مجموعة المبانى التى تسكنها العائلة فى شارع من شوارع القرية ، وفى الحيوانات التى يستخدمونها وربما فى الأرض التى يزرعونها . فاذا ضاع ثلث مجموع الثروة فجأة كان ذلك خسارة فادحة على العشيرة كلها . لأن معنى ذلك أن الأرض ، وربما البيوت والحيوانات ، كان لابد أن تباع بسرعة وبثمن بخس . وهكذا يضيع فى أيام قليلة ما ظلت العائلة تكافح لكسبه فى أجيال كثيرة . ومع ذلك ، فالإبن الأصغر لا يبالى بكل هذا .

٥ ــ وهو ولد جاحد ناكر للجميل . فان قلب أبيه كان يفيض حباً له ، ولكنه قابل هذا الشعور بالرفض والإنكار .

٦ ــ ويعنى هذا التصرف من جانب الإبن الأصغر إنعدام ثقته فى أبيه . فقد قرر أن يتولى تقرير مصيره بنفسه ، ومعنى هذا أنه كان يشعر أن أباه لم يكن جديراً بالثقة فيه لقيادته وإرشاده .

٧ ــ وهو يريد الامتياز بدون المسئولية . ويستخدم فى طلبه عبارة طويلة منمقة . ولقد كانت الصيغة الطبيعية المباشرة التى كان يمكن أن يقدم بها هذا الطلب هى هذه : «إنى أريد ميراثى» . ولكنه عوضاً عن ذلك يقول : «اعطنى القسم الذى يصيبنى من المال» . فلماذا إذاً هذا التعقيد واللف فى الكلام ؟ إننا نراه يتجنب عمداً استخدام كلمة «ميراث» ... ولقد وردت كلمة ميراث (Klaronomia) فى العهد الجديد أربع عشرة مرة ، واستخدمها لوقا أربع مرات (مت ٢١ : ٣٨ ، مر ١٢ : ٧ ، لو ١٢ : ١٣ و ٢٠ : ١٤ ، أع ٧ : ٥ و ١١ : ٨ ، ابط ١ : ٤) . ولكننا هنا نجد أمامنا كلمة نادرة الاستعمال وهى كلمة (Ousia) ، وقد استعملت هذه الكلمة فى هذه القصة فقط ، ولم تستعمل إطلاقاً فى بقية العهد الجديد كله ، ولكى يتضح لنا سبب ذلك ، علينا أن نلاحظ المفاهيم والتقاليد السائدة فى الريف ، فقبول الميراث يتضمن قبول

مسئولية القيادة فى شئون العشيرة . ويعتبر الشخص الذى يستلم الميراث ملتزماً بواجب إدارة الممتلكات والإسهام فى فض منازعات الأسرة وحل مشاكلها ، وعليه أن يدافع عن شرف وكرامة العائلة ضد كل الغرباء ، حتى إذا لزم الأمر أن يضحى بحياته فى سبيل ذلك ، وهو يعتبر نفسه ملتزماً بزيادة ثروة العشيرة ، وبتمثيلها فى المناسبات الهامة كحفلات الزواج والولائم والجنازات . ومجمل القول أن عليه أن «يبنى ويدعم بيت أبيه» .

ولكن هذا كله هو بالضبط ما لم يكن الإبن الأصغر يريده وما لم يطلبه . إنه يريد المال ! وأغلب الظن أن نصيبه كان «ممتلكات» ، فأخذ ما يعادله من «المال» أى «النقود» . وبعبارة أخرى أنه لم يرد ولم يطلب ميراثه بما كان يتضمنه من المسئولية .

٨ ـــ وهو بذلك يفصم عرى الصلة التى تربطه بأهله ، ويعزل نفسه بعيداً عنهم ، فهو يأخذ نصيبه من الثروة ، وبذلك يقطع أواصر العلاقة مع أبيه . وهكذا يحرم نفسه من الميراث الحقيقى ، أى أنه خسر نفس الميراث الذى كان قد رفض أن يطلبه . وليس هناك ضمان بالنسبة لرجل القرية أقوى من ضمان ارتباطه بعائلته ووجوده فى قلب أسرته . فهذا بالنسبة له شىء ثمين يحرص عليه حرصه على الحياة نفسها . إن عائلة القروى بالنسبة له هى أمنه الاجتماعى ، وهى وثيقة التأمين على حياته ، وهى معاش التقاعد فى شيخوخته ، إنها ملاذه للزواج المضمون ولكيانه العاطفى والجسدى . والخلاصة أنها كل شىء بالنسبة له ، وأن ارتباطه بالأرض وبانتسابه إلى «بيت فلان» هو أقوى وأمتن رباط .

عندما تسأل شخصاً ما من سكان المدن قائلا له : «من أين أنت ؟» فهو لا يجيبك بذكر عنوانه ، لكنه يفضل أن يجيبك قائلا : «أنا من قرية كذا» . وربما يكون لم ير تلك القرية فى حياته ، لكنه يعرف أن أصول عائلته أو عشيرته هناك ، وأن بيت العائلة التى هو أحد أفرادها أو أحفادها لا يزال موجوداً ، وأنه إذا تعطل عن العمل أو تنكر له كل الأصدقاء ، فإنه سيجد فى تلك القرية وفى ذلك البيت القبول والترحيب ، حتى إذا لم يكن أحد هناك قد رآه من

قبل . إن مجرد قوله : «أنا فلان ، ابن فلان ، من بيت فلان» كافٍ لأن يجعل أبواب البيت تفتح له على مصاريعها . وليس هناك مسبة يشتم بها إنسان أقسى من أن ينعت بأنه «بلا أصل» . فإن مثل هذا الشخص يعتبر متشرداً لا يثق فيه أحد .

لكن الإبن الأصغر ضرب بكل ذلك عرض الحائط ، لقد رفض ميراثه الجوهرى واستبدل به مالا سرعان مايزول ، ومن وجهة النظر الروحية نقول إنه أراد أن يستبدل بميراثه الأبدى الدائم قدراً من المال وقتياً وفانياً .

ومن تلك الصورة من الترابط العائلى ، تتضح أمامنا عظمة غنى المسيح . فالحقيقة أن الله ، كآب ، يقدم لأولاده أعمق وأعظم ضمانات الأمن والطمأنينة والاستقرار . إن عبارة «أهل بيت الله» (أف ٢ :١٩) يجب أن تعنى بالنسبة للمؤمن ماتعنيه العائلة أو العشيرة فى القرية بالنسبة للقروى .

٩ ـــ ويرفض الإبن الأصغر أن يظل محتفظاً بنصيبه فى شركة مع أبيه . وعندما يكون الولد فى البيت فان كل ما يملكه أبوه فهو ملك له هو أيضاً . ولكن هذا لا يعتبر كافياً أو مشبعاً فى نظر الإبن المتمرد الذى يريد أن ينفرد بالملكية بلا شريك . فهو يطلب نصيبه ، ويريد أن ينفصل انفصالا كاملا عن الشركة مع أبيه .

١٠ ـــ والإبن الأصغر مسؤول عما فعله بنفسه مسئولية كاملة . ومع أن كثيراً من اللوم والذنب يقع على أخيه ، لكن هذا لا ينفى أبداً مسؤولية الإبن الأصغر عن تصرفه . لقد ضاع الخروف بالغفلة والإهمال ، ولقد كان الدرهم المفقود جماداً لافكر عنده ولا إرادة . أما الإبن فقد اختار بنفسه ـــ عمداً ـــ أن يجرح قلب أبيه وأن يمزق ويحطم كل الروابط التى كانت تربطه بعائلته ...

الابن الأكبر

ويجب أيضاً أن نحاول تحليل مشاعر ومواقف الإبن الأكبر . وهنا تبرز

أمامنا عدة حقائق :

١ ــ فهو بكل تأكيد يعرف القصة كلها . إن كل مايحدث فى مجتمع القرية سرعان ما يصبح معروفاً لدى الجميع . ومن المرجح جداً أن يكون الخدم وبقية أفراد الأسرة قد استمعوا خلسة إلى الحديث الذى دار بين الأب والإبن الأصغر . وربما كان الإبن الأكبر نفسه حاضراً وقتئذ . وإنى أذكر مرات كثيرة كنت فيها فى زيارة بعض البيوت فى القرى ، وبينما كنا جالسين نتحدث فى إحدى غرف البيت ، كنت أفاجأ بصوت من غرفة أخرى يتدخل فى حديثنا بسؤال أو جواب أو تعليق . فمن المألوف جداً فى القرية أن ينصت الناس إلى المتحدث ، وأن يتدخلوا فى الحديث ، حتى إذا لم تكن المحادثة معهم أو تخصهم . ولا يمكن أن نتصور أن محادثة كتلك التى حدثت بين الأب والإبن الأصغر ، لم تبلغ مسامع الإبن الأكبر بكل تفاصيلها . فلابد أن كل شخص فى القرية كلها قد سمع بها قبل غروب شمس اليوم نفسه .

٢ ــ وهو يرفض أن يقوم بدور «الوسيط» . وعندما تحدث مشاجرة فى القرية ، فان الطرفين المتشاجرين لا يتصالحان مباشرة . ولو فعلا ذلك لكان معنى هذا أن واحداً منهما قد ضاعت كرامته ، وهذا ما لا يرتضيه أحد لنفسه . ولكن عملية المصالحة تتم عن طريق طرف ثالث يسمى «الوسيط» . ويتصل هذا الوسيط بكل طرف على حدة حتى يتمكن من إعداد حل وسط يرتضيه الطرفان ، بحيث لا ينتصر أو يكسب أى جانب على حساب الجانب الآخر . ثم يرتب الوسيط اجتماعاً يلتقى فيه الجانبان ، ويتصافحان ، ويتعانقان ، وربما يقبل كل منهما الآخر على رأسه كعلامة على التصالح ، ويكون الوسيط عادة شخصاً له علاقة قوية بكل جماعة من الجماعتين المتنازعتين . وفى الحالة التى أمامنا ، فإن الإبن الأكبر بالطبع كان هو الشخص الوحيد الذى كان يمكنه أن يقوم بدور الوسيط . بل وكان ينبغى عليه أن يبدأ الوساطة فوراً ، وأن يصالح أخاه مع أبيه حالا . وكانت العائلة والجماعة كلها تتوقع منه أن يفعل ذلك ، ولكنه للأسف لم يحرك ساكناً ، وكأن الأمر

لايعنيه . ونراه يرفض الوفاء بالمسئولية المقدسة التى تفرضها عليه تقاليد القرية . وواضح أنه — لسبب ما — لا يريد أن تتم المصالحة . فحتى لو كان يكره أخاه ، لكان من الواجب عليه أن يقوم بمهمة المصالحة «من أجل خاطر أبيه» . ونحن نعلم أنه من أجل «خاطر» أصدقائنا وأقاربنا يجب أن نرحب بعمل أى شىء . فكم وكم يجب أن يكون تصرف هذا الإبن لأجل «خاطر» أبيه . ولكننا نرى هذا الإبن الأكبر يرفض أن يلبى نداء الواجب . ويعتبر هذا الرفض دليلا صريحاً على العلاقة المقطوعة بينه وبين أبيه . أى أن الأمور لم تكن كما ينبغى أن تكون بينه وبين أخيه ، ولا بينه وبين أبيه .

٣ — وربما نستطيع أن نستطرد قليلا فى استنتاج ما كان كامناً فى نفسه ، وهو يرفض — فى صمت — أن يقوم بواجبه ، فإنه من المحتمل جداً أنه كان فى قرارة نفسه راضياً ومبتهجاً لما حدث بين أخيه وأبيه . وفضلا عن ذلك ، ربما كان هو نفسه جزءاً من السبب الذى دفع أخاه إلى ترك البيت . وفى الشرق ينظر الناس إلى السن باعتبار خاص . وهناك مثل قروى يقول : «الذى ليس عنده كبير يشترى له كبيراً» . ومعناه : «إذا لم يكن لديك فى العائلة رجل متقدم فى السن ليرشدك ويقودك فى الحياة بحكمته وخبرته ، فمن الأفضل أن تشترى لك شخصاً يؤدى لك هذه المهمة» . وهناك مثل آخر يقول : «الذى يكبرك بيوم يعرف أكثر منك بسنة» . وبحسب تقاليدنا فى الشرق فان الشخص التالى فى السلطة بالنسبة لك — بعد الأب — هو الأخ الأكبر ، وليس الأم . فالأب ينادى عادة بأنه «أبو فلان» ، و «فلان» هذا هو اسم الأخ الأكبر . وعندما يموت الأب ، فان الأخ الأكبر يتولى السلطة فى العائلة ، ويكون له عادة نصيب الأسد فى الميراث . وقد يصبح الأخ الأكبر بسبب هذه الامتيازات متعجرفاً طاغياً إلى درجة يصعب تحملها .

ربما كان هذا كله هو الخلفية التى تستتر وراء قصة المسيح هذه ، فربما كانت عجرفة الأخ الأكبر وطغيانه هى السبب الذى أدى إلى حدوث الشقاق والتصدع فى العلاقات بين الإبن الأصغر وأبيه .

٤ ـــ وعندما يغادر الابن الأصغر البيت ، نرى الإبن الأكبر لا يزال صامتاً . ونرى الأب ، على أية حال ، وبسبب نفور الإبن الأصغر ومخاصمته لأبيه ـــ نراه فى موقف لايمكنه من توديع ابنه . وهنا ، مرة أخرى ، نجد الإبن الأكبر يتخلى عن واجبه ويتجاهل مسئوليته . فقد كان ينتظر منه أن يطلب من أخيه ألا يسافر . وكان من الواجب عليه أن يذكره بمحبة الأب . فكان يمكنه أن يقول له مثلا : «ياأخى ، إن أباك رجل عجوز ، وقد لا تراه ثانية . لا تتركنا ياأخى ، إن أمك ستعمى عيناها بسبب بكائها عليك . نحن لا نستطيع أن نتحمل فراقك» . وإذا وجد أخاه بعد هذا كله مصمماً على السفر ، كان ينبغى أن يقول له : «إن قلوبنا معك ، وسنستمر نصلى لأجلك ، ليكن الرب معك ، وليضمن سلامتك فى رحلتك . ونرجوك أن تعود إلينا بسرعة» .

ولم تكن مخاطر السفر فى ذلك الوقت بالأمر الذى يستهان به . فقد كان الابن الذى يسافر إلى بلد بعيد يعتبر فى حكم المفقود . وعندما يعود ، كانت نعمل له وليمة عظيمة وتطلق الأعيرة النارية تحية له وابتهاجاً بعودته . وحتى يومنا هذا نرى أحيانا وداعاً مؤثراً على محطة القرية حيث تجتمع الأسرة كلها لتودع ابناً مسافراً بالسكة الحديد إلى بلد قد لا تبعد بضعة أميال ، ليقضى فيها شهراً مثلا أو أكثر ، وعندما ترى هذا الوداع المؤثر يخيل اليك كما لو أن هذا الابن مسافر ليموت فى الحرب . وكلما كانت الرابطة بين الأسرة أقوى كان فراق واحد منها أصعب .

وفى القصة التى نحن بصددها ، لا نجد وداعاً كهذا للإبن الأصغر المسافر . فالأب لا يستطيع أن يعبر عن كل هذا بسبب نفور الابن ومخاصمته له ، والإبن الأكبر لا يودع أخاه بكلمة بسبب موقفه منه .

الأب

وماذا عن الأب ؟ إننا نراه يفعل ما لا يمكن لأى أب قروى أن يفعله . فهو

يمنح الإبن الأصغر ما أراده . وكان المنتظر أنه يرفض ذلك ، بل وأن يعاقب هذا الإبن على مجرد طلبه هذا . ولكن بالرغم من أن الأب يعرف مايعنيه الإبن بهذا الطلب . فإنه يمنح الإبن الحرية الكاملة ـــ حتى حرية البعد عنه . وفى هذا يقول وليم تمبل «**إن الله يمنحنا الحرية ـــ حتى حرية رفض محبته**» . ولكن الأكثر من ذلك أن **الأب يبقى هو الأب نفسه** . فهو لا يبتر علاقته مع ابنه ولا يفصمها . إن حبل العلاقة يقطع فعلا بسبب تصرف الإبن ، ولكن الأب يبقى ممسكاً بطرف الحبل المقطوع آملا فى عودة الابن ليمسك بالطرف الآخر من جديد . ولا شك أن الأب وهو يفعل ذلك يتألم كثيراً ويحزن . ولو كان الأب قد تبرأ من الإبن لما كان هناك امكانية للمصالحة . أما تألم الأب وحزنه لفراق ابنه له فإنه هو الذى يجعل الأساس مهيئاً لإمكانية عودة الإبن .

ونحن نلاحظ أن كلا من الشخصيات الثلاث المكونة للقصة يكشف عن نفسه من البداية . فنحن نعرف الإبن الأصغر بما يطلبه ، ونعرف الأب بما يفعله ، والإبن الأكبر بما لا يفعله .

وتقول الآية : «**فقسم لهما معيشته**» . أى أن الإبن الأكبر أيضاً قد أخذ نصيبه فى نفس الوقت . ولكن من الواضح أن الأب لا يزال صاحب السلطان . فهو قد منح حق الملكية ، ولكنه فى هذه الحالة لم يمنح حق التصرف . إلا أن ثروة العائلة قد تفتتت بذلك وضاعت . وهذه النقطة مهمة جداً لفهم موقف الأخ الأكبر فى نهاية القصة .

الفصل الثالث

خطة للخلاص

لوقا ١٥ : ١٣ - ١٩

إجعلني كأحد أجراك

ويصل الإبن الضال إلى حالة من اليأس المريع ، فلابد أن يأكل بطريقة ما . وأخيراً يقرر أن ينفذ خطة لإنقاذ حياته من الهلاك جوعاً . وتتلخص الخطة فى أنه يعود إلى البيت ، ويشتغل هناك كخادم أجير . وهكذا يعيش هناك مع الخدم وليس داخل البيت . وبهذه الطريقة لن يضطر إلى أن يعيش مع أخيه ، وربما يستطيع أن يدفع لأبيه ما يعوضه الخسارة المادية التى لحقت به ، وهكذا يكون قد خلص نفسه بجهده الشخصى . وهذا يبين أن روح التمرد لم تستأصل منه بعد .

عدد ١٣ **«وبعد أيام ليست بكثيرة جمع الإبن الأصغر كل شيء وسافر إلى كورة بعيدة وهناك بذر ماله بعيش مسرف» .**

ليس لدينا سجل مكتوب عن الكيفية التى قضى بها هذا الإبن تلك الأيام القليلة ، ولذلك ليس أمامنا إلا أن نخمن أو نستنتج سبب الإشارة اليها هنا . ربما قضى الإبن الأصغر تلك الأيام فى «بيع بكوريته بأكلة عدس» واستبدال ميراثه بحقيبة مليئة بالعملات الذهبية ، وهناك ما يثبت أن عبارة «جمع كل شيء» تعنى فى الحقيقة أنه «حوّل كل شيء إلى نقدية» . وفى الترجمة الانجليزية الحديثة نجد هذه العبارة مترجمة هكذا : «وبعد أيام قليلة حوّل الإبن الأصغر كل نصيبه إلى نقدية وسافر إلى بلد بعيد» . وواضح أنه فعل ذلك لكى يتمكن من حمل نصيبه فى يده» . ولابد أن كل الناس فى القرية ازدروا بهذا الابن واحتقروه جداً لتصرفه هذا . ولكنه لم يعبأ بذلك ، ولم يكترث لهم . وسافر ، وكان الشيء الوحيد الذى شيعه وتابعه هو محبة أبيه المكسور القلب .

وهكذا تنكر الإبن لكل الروابط ، ولم تعد له «حقوق» أخرى يطالب بها ، وسافر إلى بلاد بعيدة . وكلمة «سافر» باللغة اليونانية ، وهى الكلمة التى استخدمها لوقا هنا فقط ، تعنى حرفياً «سافر بعيداً عن أهله وشعبه» . وهذا هو فى الحقيقة مافعله هذا الإبن ، إذ قد ترك شعبه .

ومن خطل القول ، بالطبع ، أن نتخيل أين كانت تلك «الكورة البعيدة» . فربما لم يكن المسيح يقصد بقعة جغرافية معينة . ولكن الحقائق القليلة التى أمامنا تجعلنا نرجح أن سوريا يمكن أن تكون هى المكان المشار اليه . فمن المحتمل جداً أنه ذهب ليعيش بين اليونانيين ، حيث نرى وجوده هناك ينتهى برعاية الخنازير ، ولأن اليونانيين كانوا لا يمانعون فى أكل الخنازير ، بل وكانوا يقدمونها كذبائح . وكانت سوريا تعتبر ، بالنسبة لأى رجل جليلى ، مكاناً بعيداً . بل إن القرية التالية ، بالنسبة للكثيرين من القرويين ، تعتبر مكاناً بعيداً .

وفى الكورة البعيدة «بذر ماله» . والكلمة «بذر» فى اللغة اليونانية تعنى «نثر أو بعثر» . وهى تستخدم أيضاً لوصف العدو عندما يتشتت أو يتفرق على أرض المعركة . كما تجدها مستخدمة للإشارة إلى تشتت أو تبدد قطيع من الخراف وإلى بعثرة الحبوب أثناء التذرية ، وإلى نثر البذور أثناء عملية البذر ، وأيضاً إلى تبذير المال أو انفاقه بإسراف (مت ٢٥ :٢٤ ــ ٢٦ ، مت ٢٦ :٣١ ، مر ١٤ :٢٧ ، لو ١٦ :١ ، أع ٥ :٣٧) .

وليس هناك سجل يمكن الرجوع اليه لمعرفة كيف «بذر» هذا الإبن ماله . أما القول التقليدى بأنه ضيع ماله بطرق لا أخلاقية ـــ هذا القول لا يستند إلا إلى افتراءات أخيه الأكبر . أما المثل نفسه فلم يذكر لنا شيئاً من هذا القبيل ، ولم يحدد لنا طبيعة الحياة التى عاشها الابن الأصغر فى الكورة البعيدة .

وبحسب سياق الكلام فى المثل يمكن أن تحمل عبارة «بذر ماله» معنى حياة الفجور وكل أنواع السلوك غير الأخلاقى . ولكن يمكن أيضاً أن تحمل معنى الإسراف فى صرف المال على الملذات الشخصية . وإذا اعتبرنا أن هذا الإبن كان ريفياً فإنه يمكننا بسهولة أن نتصور سلوكه وتصرفاته عندما يذهب إلى مكان بعيد . فإن الشاب الريفى الذى ينتسب إلى عائلة كبيرة وغنية ، عندما يسافر إلى مدينة كبيرة فإنه يضيع ماله هناك بإسراف أحمق لمجرد الرغبة فى الشهرة بأنه رجل كريم . فتراه يقيم الولائم الكبيرة . ويقدم الهدايا الثمينة الغالية . ذلك لأن الكرم يعتبر من أعظم الفضائل التى يتسابق الجميع إلى التحلى بها . ولابد أن هذا الإبن كان ينتهز كل فرصة يمكنه أن ينتزع فيها إعجاب أصدقائه به لأنه شخص كريم . ولكن فاته بالطبع أن يميز بين «الكرم» و «الإسراف» . وكأنه كان يأكل من ثمار شجرة تركها دون ماء يرويها ، حتى جفت ويبست .

عدد ١٤ : **«فلما أنفق كل شىء حدث جوع شديد فى تلك الكورة فابتدأ يحتاج»** .

يختار لوقا مفرداته اللغوية بدقة بالغة . فإن كلمة «أنفق» هنا هى كلمة خاصة تعنى أيضاً «أسرف» أو «بذر» أو «أنفق بحرية» أى أن المعنى المتضمن فى عدد ١٣ نراه مستمراً أيضا فى عدد-١٤ . فعندما نفذ المال من يدى الإبن الأصغر وجد نفسه فى مأزق وضيق شديد . ذلك لأن كل ما كان قد أخذه من مال نظير نصيبه فى ميراث أبيه ضاع منه ، وهو الآن يعانى الحاجة والعوز . فلماذا لا يعود إلى البيت ؟ لقد كان هذا هو الحل الطبيعى الوحيد الذى كان يتحتم على هذا الإبن أن يواجه به المشكلة . فإن الشاب القروى الذى يضيع كل ماله فى المدينة الكبيرة ليس أمامه سوى تصرف واحد لا بديل له ، وهو أن يعود إلى البيت . ولكن الابن الأصغر ليس مستعداً بعد لأن يفعل ذلك . ولماذا ؟ قد نتصور أن كبرياءه أو كرامته تمنعه من العودة لأبيه . ولكنه يعلم بكل تأكيد أن أباه سيقبله إن هو عاد اليه . فقد بيّن الأب محبته الكاملة له عندما لبى طلبه الأصلى .. ولم يخطر ببال الابن فى أية لحظة من اللحظات إن أباه سيطرده أو يرفض قبوله فى البيت . ولكن ، لا يزال يوجد شيئان على الأقل يجعلان هذا الإبن يبقى بعيداً :

أولا : إنه سيواجه ازدراء أخيه وسخريته به . فهو لن يقاسى فقط من اللوم على مافعله فى الماضى ، ولكنه أيضاً سيضطر إلى أن يعيش فى المستقبل من ميراث أخيه . أى أنه «سيأكل عيش أخيه» ، وبذلك سيكون مديناً لأبيه ولأخيه أيضاً . ولذلك ستكون معاملة أخيه له أسوأ بكثير مما كانت قبلا . وليس تجرع مثل هذا الكأس المرير جداً بالأمر السهل . وهكذا كان نفور الأخ الأصغر من أخيه الأكبر سبباً فى عدم عودة الشركة بينه وبين أبيه . أو ليست هذه القصة القديمة تعيد نفسها على مر الأيام والسنين .

ثانياً : كان عليه أن يواجه القرية . فهو كان قد قطع علاقاته مع الجماعة كلها ، ولابد أنه سيكون الآن موضع احتقار وازدراء كل القرية . ولذلك فإن الحياة فيها بالنسبة له ستكون مستحيلة . وفضلا عن ذلك ، فإن المشكلة التى ستواجهه فور وصوله إلى القرية هى كيفية الوصول إلى بيت العائلة عبر

شوارع القرية الضيقة . ذلك لأن مجتمع القرية لا يرحم إنساناً أخنى عليه الدهر ، بل إنه يقاسى كثيراً من سخرية الناس واحتقارهم ، حتى الأطفال الذين يلعبون فى شوارع القرية يتابعون مثل هذا الرجل التعس بصيحات السخرية والهزء حيثما يذهب . ونحن نجد أمثلة لهذا فى الكتاب المقدس . ففى مر ١٠ : ٤٦ ـــ ٥٢ نجد قصة شفاء المسيح لبرتيماوس الأعمى ، وكلمة «تيماوس» يحتمل جداً أن تكون مشتقة من أصل عبرى يعنى «قذر» ولذلك فإن «برتيماوس» تعنى «ابن القذارة» وهى الكلمة التى كان الناس ينعتون بها هذا الشحاذ احتقاراً له وازدراء به . وفى العهد القديم ، لم يسلم أليشع ، مع أنه كان نبياً ، من سخرية صبيان القرية . وهذا ماجاء فى ٢ مل ٢ :٢٣و ٢٤ «ثم صعد من هناك إلى بيت إيل . وفيما هو صاعد فى الطريق إذا بصبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه وقالوا له اصعد ياأقرع . اصعد ياأقرع . فالتفت إلى ورائه ونظر اليهم ، ولعنهم باسم الرب . فخرجت دبتان من الوعر وافترستا منهم اثنين وأربعين ولداً» .

ولاشك أن الإبن الأصغر كان يعرف أنه سيقابل فى القرية بمثل هؤلاء الساخرين .

ويقول المثل : «حدث جوع شديد فى تلك الكورة» . ولسنا فى حاجة إلى وصف ما يقاسيه الناس من متاعب ومخاطر عندما تحدث مجاعة . ومع ذلك فقد كانت المجاعة بما فيها من شقاء وعذاب ، أكثر احتمالا فى نظر الإبن الضال من أن يتخلى عن كبريائه ويعود إلى أبيه ، فى اتضاع وتذلل .

عدد ١٥ **«فمضى والتصق بواحد من أهل تلك الكورة فأرسله إلى حقوله ليرعى خنازير»** .

إن الفعل «التصق» قد ورد فى العهد الجديد إحدى عشرة مرة فقط ، منها سبع مرات وردت فى كتابات لوقا (لو ١٠ :١١ و ١٥ :١٥ ، أع ٥ :١٣ و ٨ :٢٩ و ٩ :٢٦ و ١٠ : ٢٨ و ١٧ : ٣٤) . وهو يستعمل لوصف رجل

يرتبط بزوجته ، أو غبار يعلق بالأقدام ، أو شخص يلازم شخصاً آخر ، أو شخص يتمسك بشدة بشيء ما ، ومعنى الكلمة هنا أن الإبن الأصغر «ألصق» نفسه بواحد من أهل تلك الكورة . أى أن هذا المواطن الذى ألصق نفسه به لم يكن يريده على الإطلاق ، ولا حتى كان فى حاجة اليه . وقد حاول أن يتخلص منه بأن عرض عليه عملا كان واثقاً أنه سيرفض القيام به . فإن كثيرين من الشحاذين يقرعون باب هذا المواطن كل يوم . ولكن هذا الشاب كان يختلف عنهم جميعاً : فقد كان معروفاً فى الكورة ، وكانت الأحاديث المتداولة تروى كيف بذر ماله . وكان يبدو عليه أنه ينحدر من عائلة عريقة . وكان واضحاً من ملابسه وكلامه أنه يهودى . ومعنى هذا أنه كان يكره الخنازير ويشمئز من الوجود معها . ولو كان قد تبقى له أدنى قدر من الإحساس بالكرامة وعزة النفس لأبى أن يقبل عملا كرعاية الخنازير هذا . ولكن هذا الشاب ، وقد استولى عليه اليأس ، اضطر أن يقبل هذا العمل .

ومن الآية نفهم أن صاحب الخنازير كان من «أهل» تلك الكورة . وهذا يعنى أنه كان ميسور الحال وذا مركز كبير فى البلدة ، فإن الكلمة التى يستخدمها لوقا هنا تشير فى الأصل إلى الطبقة الخاصة من المواطنين المحظوظين الذين كان لهم كافة الحقوق فى الحكومة التى تتولى شئون الحكم فى المدن اليونانية فى الشرق الأوسط فى ذلك الوقت . ولوقا صاحب الثقافة اليونانية الواسعة ، هو الوحيد من كتّاب الإنجيل الذى يستخدم هذه الكلمة .

وتعيش الخنازير عادة على الفضلات والزبالة الملقاة فى شوارع القرية . ولكننا نراها فى هذه القصة تأكل الخرنوب الجاف ، إذ ربما كانت كل الفضلات والزبالة التى فى الشوارع قد التهمها الناس الذين كانوا يموتون جوعاً بسبب المجاعة الشديدة .

عدد ١٦ : **«وكان يشتهى أن يملأ بطنه من الخرنوب الذى كانت الخنازير تأكله . فلم يعطه أحد»** .

وعندما ملأ اليأس قلبه اشتهى أن يأكل من الخرنوب الذى كانت الخنازير تجبر على أكله ، ولكنه لم يستطع . والكلمة اليونانية المترجمة «**اشتهى**» كلمة قوية جداً . فهى تتضمن معانى «الرغبة» والإشتهاء ، والتمنى ، والاشتياق» . وقد استخدم يسوع هذه الكلمة عندما قال : «**شهوة اشتهيت** ، أن آكل هذا الفصح » (لو ٢٢ : ١٥) .

وفضلا عن ذلك ، فإنه — كيهودى — ربما لم يكن يستطيع أن يسمح لنفسه بأكل قطعة مما يتبقى من لحم أحد الخنازير التى كانت تذبح ليأكلها صاحبها ، فيكفيه تمرداً وعصياناً أن يرعى الخنازير ، أما أن يصل إلى درجة الأكل منها ، فهذا ما لم يكن يستطيع أن يبيح لنفسه أن يفعله .

ونلاحظ أن الآية لا تقول إن الإبن الأصغر أكل من الخرنوب ، ولكنه كان فقط **يشتهى** ويشتاق أن يفعل ذلك . ويمكن أن يفسر هذا بأحد أمرين : فربما كان الإبن الضال ضعيفاً جسدياً إلى درجة أنه لم يكن يستطيع أن ينافس الخنازير الجائعة . أى أنه فى إعيائه الشديد بسبب جوعه لم يكن يستطيع أن يشق طريقه فى وسط الخنازير لئلا تأكله . فإن الخنزير الأليف قد يصبح حيواناً خطيراً إذا كان جائعاً . ويعرف كل فلاح يربى خنازير أنه إذا سقط بينها إنسان ضعيف عاجز فإنها تأكله بكل تأكيد . وهناك أطفال صغار فى بعض قرى الشرق تراهم بذراع أو بساق واحد ، لأن الذراع الآخر أو الساق الآخر قد أكله خنزير برى شارد . ولذلك لم يجرؤ الابن الأصغر على منازعة الخنازير فى أكل الخرنوب .

أما التفسير الآخر لهذه العبارة ، فهو أن الإبن الأصغر ربما تمنى أن يكون خنزيراً ، أو أن تكون له معدة الخنزير التى تستطيع أن تهضم هذا الخرنوب الخشن الذى كانت الخنازير تأكله . إذا كانت الخنازير أحسن حالا منه . فقد كانت بطونها شبعانة بينما كان هو جائعاً .

وليس من شك فى أن هذا الإبن حاول أن يستجدى ، فقد كان أناس

كثيرون يسلكون نفس الطرق التى كانت تجتازها قطعان الخنازير ، وربما كان يتبع كل جماعة مسافرة من الناس بقدر المستطاع ، وهو يمد لهم يده ، ويستعطفهم بكلمات الاسترحام وأنين الإحساس بالجوع والمذلة ، ولكنه فشل حتى فى هذا ، لأنه لأنه «لم يعطه أحد» .

وهنا يبلغ به اليأس أشده ، فيطغى إحساسة بالجوع وبالحاجة على إحساسه بالخجل الذى سيشعر به فى لقائه مع أبيه عندما يعود إليه ، ويفوق أيضاً خوفه من الإهانات القاسية التى سيصبها عليه أخوه وأهل القرية . فلا مفر إذاً من مواجهة كل شيء وتحمله ، بدلا من الموت جوعاً .

ولابد أنه لم يفكر جدياً فى العودة إلا بعد أن درس كل فكرة أخرى يمكن أن تكون بديلا لفكرة العودة ، وتبين له عدم جدواها ، وبعد أن وهنت قواه ، ووجد نفسه بمرور الوقت يزداد ضعفاً وإعياء ، استقر رأيه على أن يعود إلى بيت أبيه حالا ، قبل أن تخور قواه نهائياً ، ويصبح عاجزاً تماماً حتى عن القيام برحلة العودة .

أعداد ١٧ ، ١٨ ، ١٩ **«فرجع إلى نفسه وقال كم من أجير لأبى يفضل عنه الخبز وأنا أهلك جوعاً . أقوم وأذهب إلى أبى وأقول له ياأبى أخطأت إلى السماء وقدامك ولست مستحقاً بعد أن أدعى لك إبناً . إجعلنى أحد أجراك»** .

وأخيراً رجع الإبن إلى نفسه ، وقرر أن يعود إلى بيت أبيه ، ولابد أنه افترض أن أباه سيتضع اتضاعا عظيما حتى يتنازل بقبوله . فإن ملابسه الرثة كانت أبلغ دليل على أنه كان عائداً إلى بيت أبيه لمجرد أن ذلك هو الملاذ الأخير الذى لم يجد له بديلا . وبالطبع ليس كل أب مستعداً أن يقبل ابناً فى مثل هذه الحالة . وربما كان الابن يشعر أن مظهره الوضيع سيجعل قلب أبيه يرق له .

وقد يفهم من عبارة «رجع إلى نفسه» أنها تعبير عن الندم والتوبة . ولكن يبدو أن الإبن الضال لم يكن قد فهم بعد طبيعة خطيته ، ولذلك لم تكن توبته

حتى هذه اللحظة توبة حقيقية أصيلة ، وهذا ما يتضح من صيغة الاعتراف الذى فكر أن يتقدم به إلى أبيه ، فهو يتذكر «الأجرى» . وكلمة «أجير» تعنى «خادم أو عامل باليومية» . فهو ليس «خادماً» ولكنه مجرد «أجير» ، وتتضمن هذه الكلمة معنى مهينا أو محطاً للكرامة ، فأنت «تستأجر» كناساً للشارع أو جامعاً للقمامة ، ولكن المدرسة لا «تستأجر» المدرس ، والشركة لا «تستأجر» الموظف .

وفضلا عن ذلك ، فإن الأجير لايعطى أجراً ثابتا ، وهو يعطى وظيفة لها طابع الاستمرار المضمون ، بل إنه مضطر لأن يقبل فى نهاية اليوم أى أجر يعطيه إياه الشخص الذى استأجره . وقد لا يجد عملا له فى اليوم التالى . وهو أسوأ حالا من العبد . فالعبد يشعر باستقرار وضمان أكثر من الأجير ، لأنه على الأقل سيجد دائما طعاما يأكله ، أما الأجير فقد لا يجد ذلك . ولكن الإبن يتذكر أنه حتى هؤلاء الأجرى ، الذين يعتبرون فى أسفل قائمة العمال والخدم ، يشعرون فى بيت أبيه بالطمأنينة والاستقرار . إنه يتذكر أن كل أجير فى بيت أبيه «يفضل عنه الخبز» . ومن المعروف أن الخبز فى القرية هو الطعام الأساسى ، فكل وجبة طعام تتكون من خبز ومعه أى شىء آخر . بل إن كلمة خبز أو «عيش» لها فى القرية معنى خاص ورنين قوى . فأنت تسمع القروى يقول عادة : «نحن ناس نأكل عيش» ، وهو يعنى بذلك «إننا فقراء جداً وليس لدينا سوى القليل الذى نأكله» . وأنت لا تسمع شخصا فى القرية يقول : «إنى أكسب رزقى» أو «إنى أسعى لكسب المال» ، ولكنه بالحرى يقول : «إنى أعمل لآكل عيش» . بل إن الحياة نفسها يسمونها فى القرية «أكل عيش» ويحرص القروى على أن يختزن فى بيته كمية من القمح تكفيه لصنع الخبز لشهور عديدة . وهو لا يشعر بالأمن والطمأنينة إلا إذا فعل ذلك . أى أن منتهى آمال القروى هى أن يفضل عنه الخبز . ومن هنا يتضح أمامنا معنى ما كان يقصده الإبن الضال بقوله إنه حتى «الأجرى» فى بيت أبيه كان لهم مقدار من الخبز يكفيهم ويفضل عنهم .

ويرى بعض الوعاظ والمفسرين فى استخدام الفعل «أقوم» فى عبارة «أقوم وأذهب إلى أبى ...» — يرون فى ذلك إشارة إلى «قيامة» حدثت فى حياة هذا الإبن الضال . والحقيقة أن القروى يستخدم هذين الفعلين عادة عندما يزمع أن يذهب إلى مكان ما ، فهو يقول : «أقوم وأذهب» . ولكن تصميم الإبن على أن يبدأ حياة جديدة بقوله : «أقوم وأذهب» يعتبر فعلا بمثابة بعث جديد له . ومع ذلك فإن عودة الإبن إلى البنوية ومصالحته مع أبيه لم تتم فى تلك الكورة البعيدة ، بل أنها حدثت على مشارف القرية عندما التقى بأبيه وجها لوجه .

وللإعتراف الذى كان الإبن قد أعده ليقدمه لأبيه جوانب سلبية ، وأخرى إيجابية . فمن الناحية الإيجابية نجد شيئين طيبين ، فهو يدرك أولا أنه غير مستحق ، وهو مستعد أن يعترف بذلك . وهذا بالتأكيد أفضل من مجرد الإقرار بأنه آسف لأنه أضاع المال . وثانياً ، نراه يقول لأبيه : «أخطأت إلى السماء وقدامك» . وقد استنتج بعضهم من هذه العبارة أن «السماء» هنا تشير بوضوح إلى «الله» ، ومن ثم فإن «الأب» هنا يمثل الأب الإنسانى وليس الله . ولكن المعنى السائد فى كل المثل هو عكس ذلك . فإن يسوع كان ، بكلمة «الأب» ، يشير بوضوح إلى «الله الآب» وربما قصد يسوع بهذه العبارة أن الخطية هى الإساءة التى ترتكب ضد الله وضد إخوتنا فى الإنسانية . هذا وربما كان هناك معنى أعمق من هذا يمكن أن يوضح التناقض الظاهرى فى رمزية المثل .

ومن الناحية السلبية نجد اعتراف الإبن الضال بعض الجوانب الخبيثة التى يمكن استنتاجها من اقتراحه أن يعمل فى بيت أبيه كخادم أجير .

وفى ضوء ظروف القرية وبيئتها يمكن أن يكون لهذا العرض من جانب الإبن عدة معان :

١ — أنه لن يعيش داخل بيت الأسرة ، ولكنه سيعيش فى القرية مع الخدم والأجراء . ذلك لأن «الخدم الأجرى» . لم يكونوا أهلا للثقة حتى يسمح لهم

بالبقاء داخل المنزل ، حيث توجد أشياء كثيرة ثمينة يمكن أن يسرقوها . أى أن العامل الأجير يوميا كان يُخشى منه لئلا يسرق كل ماتمتد إليه يده ، لأنه لم يكن لديه ما يخشى أن يفقده لو ضبط وهو يسرق . وربما لم تكن له فرصة للعمل فى اليوم التالى . ومن ناحية أخرى فإن الابن الضال ، وهو يعمل ويعيش فى الحقول ، سيكون بعيداً بالتأكيد عن الحياة المشتركة مع أخيه الذى يكرهه . وقد كانت نفس هذه الكراهية لاتزال تباعد بينه وبين الشركة مع أبيه ، إذ لم يكن حتى هذه اللحظة يستطيع أن يعيش مع أبيه دون أن يعترف بأبنه الآخر كأخ له .

٢ ــ وهو يأمل أنه «كخادم أجير» يستطيع أن يعمل ليعوّض الثروة التى أضاعها . وقد كان مألوفاً فى تلك الأزمنة أن يبيع المدين نفسه للدائن لفترة محددة ليوفى بذلك ديونه (لا ٢٥ : ٣٩ ــ ٥٥ ، ٢ مل ٤ : ١ ــ ٢ ، مت ١٨ : ٢٥) . وقد بدد هذا الإبن مال الأسرة ، ولكنه يستطيع أن يقدم نفسه كخادم اجير . وعندئذ يمكن ان يتفق على عدد السنين التى تلزم لبقائه أجيراً حتى يوفى ديونه . وبهذه الطريقة يكون قد استعاد ثقتهم به وإكرامهم له . لقد أخطأ ، هذا صحيح . ولكن كل شىء لم يفقد بعد . فهو يستطيع أن يخلص نفسه ويفديها بالعمل الشريف . وبمرور الوقت يمكنه أن يستعيد احترام شيوخ القرية له . ولاشك أن أباه سيتأثر كثيراً باتضباعه وارتضائه العمل كأجير . والأهم من كل ذلك ، أنه سيثبت جدارته لاحترام أخيه له .

٣ ــ وهو يأمل أن تكون علاقته مع أبيه علاقة الخادم بالسيد . وهذا هو أقصى مايشعر أنه يستطيع أن يطلبه من أبيه فى هذه الظروف . والمدهش أن التشابه فى موقف الولدين يتزايد كلما تقدمت القصة بنا . فان كلا من الوالدين فى حالة تمرد . وإذا كان تمردهما يتخذ أشكالا مختلفة فانه ينبع من دوافع مشتركة . ذلك لأن كلا منهما كان يفهم أن أساس العلاقات التى تربطه بأبيه هو اعتباره الخادم الأول له . فالإبن الأصغر يطالب «بحقوقه» فى بداية القصة ، بينما يطالب الابن الأكبر «بحقوقه» فى آخرها . وقد خسر الإبن

الأصغر فرصته باعتباره «الخادم الأول» ، ولذلك نراه يقرر أن يبدأ ثانية باعتباره «خادماً أجيراً» . أى أنه لم يكن أبداً أن يفهم أو يقبل البنوية بمسئولياتها . ولقد كانت القضية الأساسية بين المسيح والفريسيين ، وهى نفس القضية بين المسيحية اليوم وغيرها من الأديان ، هى هذه : هل نحن بالنسبة لله مجرد خدام أجراء وهو سيد مطالب ؟ أما أننا بالنسبة له أبناء ، وهو لنا الآب المحب ؟

٤ ـــ إنه لم يدرك بعد أن ماكسره لم يكن ناموسا أو قانونا بل شركة ومحبة . وإذا صحت افتراضاتنا السابقة فإنه يكون غير مدرك لمعنى مافعله . وقد يبدو اقتراحه أن يعمل كخادم أجير ، وهو بعد فى الكورة البعيدة ـــ قد يبدو أنه اقتراح وجيه وفكرة ممتازة ، ولم يخطر بباله هناك أنه قد جرح قلب أبيه ، ولهذا لم يشعر بأنه ينبغى أن يجبر هذا القلب الكسير . بل ظن أنه إذا أعاد المال الضائع إلى أبيه فإن كل شىء يصبح على مايرام .

٥ ـــ ولم تكن المصالحة جزءاً من خطة هذا الإبن ، بل أن كل ماكان يريده هو أن يجد مايستطيع أن يأكله حتى لايموت جوعاً وهو يعمل خادماً فى تلك البلاد البعيدة . فهو يستطيع أن يعمل خادماً أيضاً فى بيت أبيه ويجد ما يأكله هناك . أى أنه لم يدرك ما وصل إليه من شر وتمرد ، ولذلك فهو لا يستطيع أن يفهم معنى المصالحة وما تتكلفه من ثمن .

وخلاصة ماتقدم أن الإبن الضال لم يبدأ بعد طريق العودة الحقيقى لبيت أبيه . فطالما كانت فيه هذه الاتجاهات ، كان لا يزال فى الكورة البعيدة روحياً ، إن لم يكن جسدياً .

الفصل الرابع

المواجهة الكاشفة

لوقا ١٥ : ٢٠-٢٤

ياأبى أخطأت ولست مستحقاً

كلما تلتقى عبارة «ياأبى» بكلمة «أخطأت» نجد هناك معنى الصليب .

وفى هذا الفصل سنلحظ الفرق الواضح بين كلمات الابن الضال فى الفصل الأول وهى تعبر عن التحدى والتمرد والكبرياء ، وبين كلماته هنا وهى تشير إلى الانكسار والاتضاع . فهو الآن يعرف أنه خاطىء ، وأن خطيته شنيعة سوداء . وهو أيضاً يعترف بعدم استحقاقه .

وقد كان الآب دائماً يحمل صليب الألم ، ولكن الإبن الضال لم يكتشف ذلك إلا بعد هذه المواجهة التى تمت على مشارف القرية والتى التقى فيها الإبن العائد بالأب المترقب المنتظر .

عدد ٢٠ «**فقام وجاء إلى أبيه . وإذ كان لم يزل بعيداً رآه أبوه فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبله**» .

... غير أن الأمور لم تسر طبقاً لما كان الا ، يتوقع لها أن تسير . بل إن ماحدث كان فى الواقع عكس ماتوقعه الإبن من كل ناحية . فقد كانت القرية تعرف أن ذلك الإبن كان ملطخاً بالعار . وكان كل واحد يتوقع أن يبقى الأب بعيداً بينما كان الإبن يشق طريقه إلى القرية فى ذلة ومهانة . ولا شك أن الإبن كان سيضطر إلى البقاء خارج بوابة القرية ريثما يسأل حارس البوابة عما إذا كان أبوه سيسمح له بالدخول . وبعد أن يمر وقت طويل يستدعيه ، ولا مفر عندئذ من أن توقع عليه عقوبة من نوع ما ، حتى تفهم القرية أن الأب قد استعاد كرامته عن طريق العقاب والتأديب . ولابد أن الأب سيكون غاضباً جداً ، وأن الإبن سيعتذر عن كل شيء .

لكن هذا كله لم يحدث ، ومع أن أحداً فى القرية لا يفكر أو يعمل كشخص منفصل عن الآخرين ، إذ أن كل واحد يعتبر نفسه جزءاً من مجتمع القرية المترابط ترابطاً وثيقاً ، ومع أن تضامن الفرد مع المجموع فى القرية تضامن لا يهتز لأى سبب من الأسباب — مع ذلك ، فإننا نرى أن الأب ، على أية حال ، يتصرف بطريقة تختلف عن مألوف القرية تماماً . وهكذا نراه يخرج ويركض فى الطريق . ونلاحظ أن كلمة «ركض» المستخدمة هنا هى فى اللغة اليونانية نفس الكلمة الفنية التى تستخدم لوصف سباق الجرى فى الاستاد الرياضى . ويستخدم بولس هذه الكلمة عدة مرات بهذا المعنى . (١ كو ٩ : ٢٤ و٢٦ ، غل ٢ : ٢ ، ٥ : ٧ ، ٢ تس ٣ : ١) (راجع أيضاً عب ١٢ : ١) . من ثم فإننا نستطيع أن نترجم هذه العبارة هكذا : «رآه أبوه فتحنن وتسابق فى الركض» . أى أن المسألة لم تكن مجرد مشى متثاقل أو حتى مشى سريع ، بل كانت سباقاً . ولا شك أن رجلا فى مثل سنه ومركزه كان دائماً يمشى ببطء ووقور . ولكن العجيب أننا نراه هنا يركض بسرعة فى الطريق وكأنه يتسابق . ولابد أنه اضطر أن يمسك بأطراف ردائه فى يده كما لو كان لا

يزال صبياً فى دور المراهقة . ولاشك أن منظره هكذا كان يبعث على السخرية . ونستطيع أن نتصور الصبية الصغار وقد كفوا عن تعيير الابن الضال والسخرية منه ، وتحولوا بسخريتهم بدلا عنه إلى الرجل العجوز الذى هزّأ نفسه هكذا علانية . لكن نفس «التحنن» المشار إليه فى النص هو الذى قاد الأب إلى هذا التسابق نحو الابن . لأنه كان يعرف ماسيواجهه ابنه فى القرية . لذلك نراه يتحمل السخرية والعار اللذين كان ذلك الابن الضال جديراً بهما .

ونستطيع أن نتصور نصف أهل القرية على الأقل وهم يجرون خلف الأب . ولابد أن المحادثة التى تمت بين الأب وابنه هناك على مشارف القرية كانت على مسمع من عدد كبير من الناس الذين التفوا حولهما ، والذين كان من بينهم بصفة خاصة عدد كبير من الخدم . ولاشك أن ماقيل هناك كان يتردد بعد أقل من نصف ساعة فى كل بيت من بيوت القرية . ولم يكن هناك ثمة حافز للأب إلى تصرفه هذا سوى رغبته فى أن يعيد الإبن إلى بيته وإلى مجتمعه . وبذلك لم يكن هناك فى كل القرية من يرفض الإبن أو يحتقره بعد أن قبله أبوه ورحب به هكذا .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى بعض العبارات المألوفة فى قرى الشرق . فإن الكلمة اليونانية المترجمة «تحنن» تشير إلى العواطف ذات الجذور المتأصلة فى «الداخل» . وكان اليونانيون والعبرانيون يظنون أن البطن (الأحشاء) هى مقر العواطف . وحتى يومنا هذا ، عندما يتأثر القروى لسماع قصة مؤلمة تسمعه يقول : «أنت تقطع مصارينى» ... وكأن الأب هنا وهو يرى ابنه قادماً من بعيد يدرك ما سوف يلاقيه هذا الابن من سخرية ومتاعب من أهل القرية «فتتقطع مصارينه تحنناً» . ولذلك نراه يركض للقائه .

وفضلا عما سبق نرى الأب يقبّل ابنه ، والكلمة المترجمة هنا «قبّله» تعنى بالضبط أحد شيئين : «قبّل مراراً وتكراراً» أو «قبّل برقة وحنان» .

وبقليل من التصور نستطيع أن ندرك مقدار الخوف العميق الذى كان

يتزايد فى نفس الإبن الضال وهو يقطع الأميال الأخيرة فى طريق عودته إلى القرية ، وهو يفكر فى التعيير والتهكم الذى ستصبه عليه ألسنة الناس فى القرية . ولكنه يفاجأ عند وصوله بقبلات المحبة تنهمر عليه من فم الأب المتألم . فقد ظل الأب متألماً بسبب ابنه مدة طويلة ، أما الإبن فلم يكن يدرك ذلك أبداً . ولكنه الآن يرى أمام عينيه دليلا صريحاً ملموساً على هذه المحبة المتألمة .

وقد يزعم غير المسيحيين أن الابن الضال فى هذه القصة قد خلص بدون مخلص . فهوذا الإبن يعود ، والأب يصفح ، بلا صليب ، وبلا ألم ، وبلا مخلص . ويقول أولئك الناس أنه إذا كان الانسان ييحث عن الغفران ، فإن الله الرحيم سيغفر له ، ومن ثم فليس هناك ثمة داع للتجسد والصلب والقيامة . كما يزعمون أنه إذا كان الله عظيما حقاً ، فإنه يستطيع أن يغفر بدون هذا كله . وهم بمزاعمهم هذه يعتبرون قصة الإبن الضال دليلا على أن المسيحيين للأسف قد زيفوا رسالة المسيح .

ولكن الحقيقة عكس ذلك تماماً . فإن حقيقة الصليب والتجسد موجودة فى القصة ضمنا وبصراحة أيضاً . فإن آلام الصليب لم تكن فى حقيقتها مجرد عذاب جسدى ، بل كانت فى الواقع آلام المحبة الجريحة المرفوضة . ونحن نرى الأب فى هذه القصة يتحمل هذه الآلام الشديدة بسبب نفور الإبن منه وإعراضه عنه . بل إن هذه الآلام كانت هى الشىء الوحيد الذى جعل الباب مفتوحا أمام إمكانية المصالحة . فقد كان فى إمكان الأب أن يعلن قطع علاقته نهائيا مع الإبن ، وكان يستطيع أن يريح نفسه بأن ينسى تماما أنه كان له ابن . وبذلك كانت آلامه تخف تدريجيا حتى تزول نهائيا ، ولكن — فى نفس الوقت — كانت إمكانية عودة الإبن تتلاشى تماما . وهنا يجدر بنا أن نذكر قول بولس عن الرب يسوع فى فيلبى ٢ : ٥ — ١١ «الذى إذ كان فى صورة الله ، لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله ، لكنه أخلى نفسه ، آخذاً صورة عبد» . فعندما يترك الأب البيت ، ويركض فى شوارع القرية للقاء ابنه القادم من بعيد ، فانما هو فى الحقيقة «يخلى نفسه» لكى يصالح ابنه لنفسه . لكن الإبن

الضال لم يكن يدرك مقدار الآلام التى كان الأب يقاسيها . لذلك كان لابد أن يرى الإبن أمامه دليلا واضحا على هذه الآلام . وبدون ذلك لم يكن ممكناً أن يدرك الإبن أنه هو السبب فى هذه الآلام . ولولا هذا الدليل المادى لعاد الإبن الضال إلى البيت كخادم ، ولاتسمت حياته بالتدريج بنفس صفات الإبن الأكبر . ومن هنا تتضح أهمية الدليل المادى للألم فى المحبة التى تخلى نفسها فى سبيل من تحب . وبدون ذلك لا يمكن أن تكون هناك مصالحة . .

ونستطيع أن نرى فى قصة الإبن الضال صورة توضيحية للثالوث الأقدس . فاننا نرى فى شخص الأب وهو يتعامل مع الإبن الأصغر ، صورة الله وقد أتى للإنسان فى محبة أخلت نفسها ، بل إن هذه المحبة تتضح أكثر فى تعامل الأب مع الإبن الأكبر . وهكذا نرى الله الآب فى القصة فى شخص الأب نفسه ، بينما نرى الله الإبن فى شخص الأب أيضاً وهو يركض فى الطريق للقاء الإبن الأصغر ، ثم وهو يخرج من البيت للقاء الإبن الأكبر الذى لا يريد الدخول . ويمكن أن نقول أيضا إن الروح القدس كان بشكل ما يتمثل فى روح الأب الذى كان يعمل فى قلب الإبن ويبعث فيه الحنين إلى العودة . وبغض النظر عما إذا كان يسوع يقصد هذا أم لا ، فان هذه الفكرة تساعدنا كثيراً ونحن نتحدث إلى المسيحيين الذين يعيشون فى وسط أناس ينكرون بشدة عقيدة الثالوث .

والآن ، بعد هذا الترحيب من جانب الأب ، ماذا سيكون صدى هذه الأحداث كلها فى نفس الإبن الضال ؟

عدد ٢١ : **فقال له الإبن يا أبى أخطأت إلى السماء وقدامك ولست مستحقاً بعد أن أدعى لك ابنا»** .

وهنا نلاحظ أن الإبن لم يكمل الحديث الذى كان قد أعده ، فلم يجد محلا لأن يعرض على أبيه أن يعمل لديه كخادم أجير . بل إنه لم يجرؤ على أن يقدم علاجاً للنفور والقطيعة التى كانت بينهما . ولم يقترح نموذجا لما يمكن أن تكون

عليه علاقاتهما فى المستقبل . ذلك لأن محبة الآب قد غمرته فلم يجد بداً من أن يسلم نفسه تماما لرحمة أبيه ويقول له «لست مستحقا بعد أن أدعى لك ابنا» . أى أن استسلامه لإرادة أبيه كان استسلاما كاملا . لقد كان يصر فى البداية على أن له حق التصرف فى حياته بلا منازع ، لكننا نراه الان وهو يسلم مصيره كلية بين يدى أبيه . فقد فاجأته محبة الأب وأذهلته بفيضها الغامر . ومع أن المفسرين درجوا على القول إن الأب قاطع ابنه ولم يعطه فرصة ليكمل حديثه ، لكن الأرجح هو أن الإبن وقد وجد أمامه مثل هذا اللقاء وهذه المحبة التى لم يكن يتوقعها إطلاقا ، أحس أن خطيته الحقيقية لم تكن أنه أضاع المال ، بل كانت أنه جرح قلب أبيه . أى أن آلام الأب المحب كانت هى التى أذابت قلب الإبن وجعلته يشعر بحقيقة وجسامة خطيئته . ولم يجد الإبن أمامه شيئا يستطيع به أن يعوض أو أن يكفّر عما حدث . وبدا الاقتراح الذى كان قد أعده بأن يعمل كأجير لدى أبيه ــ بدا هذا الاقتراح الآن وكأنه تجديف وإهانة بالغة .

عدد ٢٢ ــ ٢٤ : **«فقال الأب لعبيده أخرجوا الحلة الأولى والبسوه واجعلوا خاتماً فى يده وحذاء فى رجليه وقدموا العجل المسمن واذبحوه فنأكل ونفرح . لأن ابنى هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالا فوجد ، فابتدأوا يفرحون»** .

وهنا نرى الآب يتجه إلى عبيده الذين التفوا حوله هناك على قارعة الطريق ويأمرهم أن يلبسوا ذلك الشاب العائد من الكورة البعيدة ــ أن يلبسوه كابن ، وبدلا من أن يقول له الأب : «إذهب واغتسل ثم البس بعض الملابس» ، نراه يأمر عبيده أن يلبسوه ويخدموه ويكرموه كابن البيت .

وكانت الحلة الأولى بالطبع واحدة من الحلل الخاصة بالأب نفسه . وهذا يذكرنا بما ورد فى قصة أستير عندما سأل الملك أحشويروش هامان وقال له «ماذا يعمل لرجل يسر الملك بأن يكرمه» ؟ فقد كان أول اقتراح خطر ببال هامان هو أن يلبسوه اللباس السلطانى الذى يلبسه الملك (أستير ٦ : ١ ــ ٩) .

وهكذا كان الابن الضال سيحضر الوليمة لابسا أروع حلل أبيه . وعندما يجيء ضيوف الوليمة فى المساء ويرون الإبن لابساً الحلة الأولى سيدركون إلى أى مدى رحب الأب وأعاده إلى حظيرة البنوية من جديد .

أما الخاتم ، فأغلب الظن أنه كان هو نفسه خاتم البيت أو العائلة . وكان الخاتم يستعمل لهذا الغرض منذ القدم . فقد أعطى فرعون ليوسف ثياباً وخاتماً فى يده (تلك ٤١ : ٤١ — ٤٢) . ولا يزال القرويون إلى يومنا هذا يختمون وثائقهم الرسمية بخاتم العائلة الخاص . ولاشك أن إعطاء ذلك الخاتم الخاص للإبن الضال قد أوغر صدر أخيه الأكبر وملأه بالحقد والضغينة عليه ، لأن معنى هذا أن يكون للابن الأصغر شيء من السلطة فى إدارة شئون الأسرة — الأمر الذى يشعر الابن الأكبر أنه يمارسه الآن كحق شرعى دون منازع .

وربما كان الحذاء الذى البسوه إياه فى رجليه إشارة أيضا إلى مركزه الذى عاد إليه من جديد . فقد كان العبيد يسيرون حفاة الأقدام ، أما الإبن فقد كان له أن يلبس حذاء .

وقد حرص الأب بكل اهتمام على أن يعيد للإبن الأصغر مكانته وعلاقته بين مختلف الجماعات التى كان عليه أن يتعامل معها فى القرية ، وهى العائلة ، والخدم والعبيد ، وأهل القرية وشيوخها . فبمحبته المنكرة لنفسها أعاد للابن مكانته بين العائلة . وإذ أصدر أمره إلى الخدم أن «يلبسوه» عرفوا أنهم يجب أن يعاملوه باحترام كسيد . وإذ حرص من البداية على أن يرحب به علانية أعاد إليه بذلك كرامته بين القرية . ولما كان الابن فى الوليمة لابساً أغلى حلة من حلل الأب ، كان معنى ذلك أن شيوخ القرية لا بد أن يقبلوه فى مجتمعهم ويرحبوا به تعبيراً منهم عن ولائهم لأبيه واحترامهم له . وهكذا لم يتبق أمام هذا الابن إلا علاقة واحدة كانت لا تزال مقطوعة ، وهى علاقته بأخيه الأكبر الذى كان لا يزال فى الحقل . ولم تكن إعادة هذه العلاقة أمراً سهلا ، بل أنها كانت أصعب الكل ، وذلك لأنه عندما يعود من الحقل لن يسر بالطبع بكل ماحدث .

أو ليس هذا ـــ للأسف الشديد ـــ هو عين ما يحدث فى كل عصر ؟ فعندما يقبل الله فى مراحمه انساناً ضالا محطما ، نرى علاقات ذلك الإنسان تعود وتصلح بالنسبة لكل جماعة من الجماعات التى تكون المجتمع ـــ ما عدا جماعة «الأبرار» !!

وليس هناك من يقدر على إصلاح الخاطىء ورده عن الضلال سوى الآب . كما أن هذا لا يمكن أن يحدث إلا عن طريق النعمة ، فإن الابن لم يعد إلى بيت أبيه حاملا شيئاً سوى ثوبه البالى الممزق والقذر (هذا يذكرنا بما جاء فى إش ٦٤ : ٦) . وقد كان الفريسيون يشكون ويتذمرون لأن المسيح كان يقبل خطاة ويأكل معهم . لكن يسوع لم يعتذر عن ذلك أو يكتفى مثلا بالقول : «إن هؤلاء الخطاة تعساء ومن واجبنا أن نعبر لهم عن شىء من الإشفاق والمشاركة» . بل أنه فضلا عن رفضه الدفاع عن تصرفاته هذه نراه يمعن فى التحدى . فهو لا يقبل الخطاة فحسب ، بل أنه يرحب بهم ويفتح لهم أحضانه . وهو لا يأكل معهم فحسب ، بل أنه يذبح لأجلهم العجل المسمن ! ولاشك أن أعظم تكريم يمكن أن يقدم لضيف فى القريه هو أن يذبح له المضيف عجلا . ويعتبر مثل هذا الأمر فى القرية حدثاً يستحق الذكر .

وهنا يواجه الإبن الضال تجربة الوقوع فى فخ التواضع المزيف ، ذلك لأنه يستطيع بسهولة أن يرفض البنوية ، مصراً على أنه ليس جديراً بها ، وأنه يريد فقط أن يكون واحداً من الخدم ، ولو أنه فعل ذلك لكان قد عاد بنفسه روحياً إلى الكورة البعيدة ، لكنه ينتصر على هذه التجربة الأخيرة ، ويقبل فى اتضاع حقيقى أن يعود إلى حظيرة البنوية ، إنه يعلم أنه فى ذاته غير مستحق لذلك إطلاقا ، ولكنه يعلم أيضا أن كل ما ينعم به من خير وبركة إنما يرجع فى الحقيقة إلى فضل محبة الأب وكرمه .

وإزاء تلك الحوادث المثيرة التى حفل بها هذا اليوم العظيم ـــ يوم المصالحة ، ترى ماذا تنتظر أن يفعل ذلك الابن فى المستقبل ؟ من السهل أن نتصور أنه

سيقبل على خدمة أبيه بقلب مسرور . وسوف لا يكون دافعه إلى ذلك ـــ بعد كل ما حدث ـــ الخوف من العقاب ، ولا الرغبة فى المكافأة والجزاء . ويمكننا أن نتصور أيضاً محادثة جرت بين هذا الابن وإنسان غريب التقى معه فى الحقل . لما رأى ذلك الإنسان الغريب أن هذا الابن يعمل ويشتغل أكثر من مجرد الواجب الذى يطلب منه ، قال له : «لماذا تبذل كل هذا الجهد لأجل أبيك ؟ ماذا تنتظر منه الآن ؟ وإذا بالابن يجيبه غاضبا : «أنت لم تسمع قصتى . ولو كنت قد سمعتها لما سألتنى هذا السؤال !» . ومن هنا نستطيع أن نرى فى هذا المثل ، بوضوح وجلاء ، الدوافع السليمة الحقيقية للخدمة المسيحية . فلا مكان لدوافع الخوف من العقاب أو الرغبة فى المكافأة والجزاء ـــ لا مكان لهذه الدوافع فى قلب ابن تصالح مع أبيه المحب .

ومن الواضح أن الأب كان يشير بعبارة «كان ميتاً فعاش وكان ضالا فوجد» ، إلى عودة ابنه من الكورة البعيدة . ولكننا نستطيع أن نستنتج من هذه العبارة ـــ لغوياً ـــ أن الأب كان يشير أيضا إلى الفترة التى عاشها الابن فى بيت أبيه قبل أن يهجره ليمضى إلى الكورة البعيدة . فالحقيقة أن الابن كان «ضالا» وكان «ميتا» بالنسبة للشركة مع أبيه منذ أن بدأ نفوره منه وتباعده عنه . أما الآن ، فلأول مرة ، يعيش الابن فى محبة وشركة مع أبيه . ولولا أنه كان «ضالا وميتاً» منذ البداية لما كان قد طلب من أبيه ذلك المطلب القاسى ، ولما كان قد غادر البيت . أما الابن الأكبر فلا يزال «ضالا وميتا» . وسوف يعانى الأب منه كثيراً أيضا .

والآن ، وقد عاد الإبن الأصغر إلى البيت ، لنقف قليلا لكى نلخص «سياحته» . فإننا نستطيع أن نلحظ فى سياحته سلسلة من الخطوات المتميزة ، التى قد يصعب أن نصورها بالترتيب ، لأن كثيراً منها قد حدث فى الحال ، لكن يمكننا أن نذكر التحركات التالية على الأقل :

موجز طريق سياحة الإبن الضال

١ ــ دفع الأب ثمن المصالحة بأنه ظل يتحمل عذاب المحبة المرفوضة .

٢ ــ نفذت موارد الإبن ، فبدأت الحقيقة تنكشف له ، وأدرك ما جرّته عليه كبرياؤه من ويلات .

٣ ــ بدأ طريق العودة ، معترفاً بخطئه ، لكنه يأمل فى أن يتمكن من خلاص نفسه .

٤ ــ بيّن الأب محبة غير متوقعة ، وذلك باتضاعه وإخلائه لنفسه .

٥ ــ تحطمت كبرياء الإبن ، فسلم نفسه لأبيه تماما ، ولم يجد عن استمرار علاقته مع أبيه بديلا .

٦ ــ اعترف الإبن بعدم استحقاقه .

٧ ــ قدّم الأب المصالحة والبنوية .

٨ ــ قبل الإبن ذلك فى تواضع حقيقى ، بعد أن أدرك أن كل شىء قدّمه أبوه هو عطية النعمة الخالصة .

٩ ــ ويمكننا أن نقول إن الإبن قد قبل مسئوليات البنوية بقلب جديد . فهو الآن يعرف محبة أبيه ويستطيع أن يبادله إياها . ومن ثم فإن الخدمة لم تعد وسيلة لمزيد من الربح ، بل بالحرى فرصة يقبلها بفرح لكى يعبر بها عن محبته وشكره لأبيه .

١٠ ــ وهكذا نرى الإبن الأصغر يدخل العائلة من جديد ، ويقبل أن يعيش مع أخيه غير المحب ، بل وأن يحب أخاه هذا .

الفصل الخامس

الذروة المفقودة

لوقا ١٥ : ٢٥-٣٢

ها أنا أخدمك ولك تعطنى قط

نلاحظ فى هذا الفصل أن ضمير المتكلم قد تكرر فى كلام الإبن الأكبر عدة مرات . فإن كل ماكان هذا الإبن الأكبر يقوله أو يعمله كان يدور حول «أنا» . لقد كان يعتبر نفسه عريقاً فى الحسب ومن سلالة الأشراف . ومن ثم فهو منزه عن الخطأ.ونرى أباه واقفاً فى الحقل يحاول أن يقنعه بأن يتجرد من الذات وبأن يخرج من دائرة «الأنا» .

ترى هل نجح الأب فى ذلك ؟ إن ذروة القصة هنا غير مذكورة .

عدد ٢٥ : **«وكان ابنه الأكبر فى الحقل . فلما جاء وقرب من البيت سمع صوت آلات طرب ورقصاً» .**

من الواضح أن هذه العائلة كانت غنية ، إذ كانت تمتلك ثروة يمكن أن تقسم ، وكان لديها «عجل مسمن» معداً لأية مناسبة هامة تتطلب إقامة وليمة ، وكان لديها خدم ، كما كانت تملك مجموعة منتقاة من الثياب اختاروا من بينها الحلة الأولى للإبن العائد إلى بيت أبيه . ولم يكن صاحب الأرض الذى عنده خدم — لم يكن يقوم بأى عمل يدوى . أى أن الإبن الأكبر لم يكن يشتغل بنفسه فى الحقل ، بل ربما كان جالساً فى مهابة واحترام فى الظل فى مكان ما يشرف على العمال . وربما كان عائداً لتوه بعد أن أعطى العمال أجرتهم اليومية وصرفهم .

وكلمة «أكبر» فى اللغة اليونانية هى نفس الكلمة المستعملة كلقب لكبار الناس أو لشيوخهم ، وكانت تذكر عادة مرتبطة بجماعة الكتبة ، ومن هنا نستطيع أن نعرف أية جماعة كان هذا الإبن يمثلها .

وعندما اقترب الإبن الأكبر من البيت سمع صوت آلات طرب ورقصاً . ويحتمل جداً أنه كان هناك فرقة من المغنين والراقصين ، كما يحتمل أنه كان هناك «حلقة رقص» بالعصا ، وهو الرقص الريفى المعروف فى الشرق والذى يعتبر من أقدم أنواع الرقص المعروفة فى العالم . وهو رقص بسيط ورشيق جداً ، ويكاد كل قروى يعرفه ويمارسه . أما كلمة «رقص» المستخدمة هنا فهى نفس الكلمة المستخدمة فى الترجمة اليونانية للعهد القديم والواردة فى مزمور ١٤٩ : ٣ «ليسبحوا اسمه برقص» ومزمور ١٥٠ : ٤ «سبحو بدف ورقص» وهذا يذكرنا بداود الذى رقص أيضاً أمام الرب عندما دخل تابوت الرب أورشليم . (٢ صم ٦ :١٦) .

ولابد أن القرية كلها قد سادها المرج وعمتها الفرحة معاً ، ونستطيع أن نتخيل المشهد . فلم يكن هناك تقيد بنظام أو ترتيب معين ، بل كان الكل يعبر

عن فرحته ، وبدأت الات الطرب تصدح فى بيت الأب ، كما بدأ الجميع يرقصون ويضحكون ويصفقون على أنغام الطبل والمزمار ، وفتحت النوافذ والأبواب على مصاريعها احتفاء بهذه المناسبة العظيمة . وكان يمكن أن تسمع كل بضعة دقائق صوت «زغرودة» عالية تطلقها إحدى السيدات من داخل البيت ، مما كان يزيد الفرحة إثارة وحماساً .

وكان المنتظر أن يكون رد الفعل الطبيعى لهذا كله عند الإبن الأكبر هو أنه يشترك فى البهجة والفرحة لقضاء أمسية جميلة مع كبار رجال القرية . كنا ننتظر أنه يدخل البيت دون دعوة أو إلحاح ، ولكننا للأسف ، نراه واقفاً بعيداً لا يريد أن يدخل .

عدد ٢٦ : **«فدعا واحداً من الغلمان وسأله ماعسى أن يكون هذا»** .

إن الكلمة اليونانية المترجمة «غلام» هنا ــ وهى كلمة pais ــ يمكن أن تعنى فى الحقيقة «غلاماً» أو «إبناً» أو «خادماً» والقرينة أو سياق الكلام هو الذى يحدد المعنى المقصود فى كل مرة تستخدم فيها هذه الكلمة . وبالنسبة لموضوعنا هنا فإن إدراك المعنى المقصود يقتصر على اختيار أحد المعنيين : «غلام» أو «خادم» وفى بعض المواضع فى العهد الجديد نجد أن كلمة pais تعنى بوضوح «الغلمان» أو «الصبيان» . ففى متى ٢ :١٦ نقرأ أن هيرودس قتل الصبيان pais فى بيت لحم وفى متى ١٧ :١٨ نقرأ أن يسوع أخرج الشيطان من غلام (pais) . وفى لوقا ٢ :٤٣ نجد أن الصبى (pais) يسوع قد بقى فى الهيكل لما كان عمره إثنتى عشرة سنة ، بينما نجد فى مواضع أخرى أن كلمة (pais)تعنى بوضوح «خادم» (مت ٨ : ٦ ، ٨ ، ١٣ و ١٢ : ١٨و ١٤ :٢ ولو ١ : ٥٤و ١ :٦٩و ٧ :٧ و أع ٤ :٢٥) .

لكننا نلاحظ أن لوقا يستخدم أيضاً كلمة Doulos بمعنى خادم ٢٧ مرة . وهكذا نرى أن لوقا يفضل استخدام كلمة Doulos بمعنى خادم بدلا من استخدام كلمة pais لهذا المعنى . ومن هنا يمكن القول إن الإبن الأكبر دعا

واحداً من الغلمان . وأنه إذا كان هذا الغلام خادماً فهو على الأقل خادم «صبى» وليس خادما «شابا» ولاشك أن هذا الغلام كان واحداً من كثيرين من غلمان القرية الذين يتجمعون عادة حول بيت فيه وليمة كهذه ، فإن غلمان القرية الذين يفتقرون إلى وسائل التسلية والألعاب يجدون فى مثل هذه المناسبة فرصة مثيرة للتفرج ، وربما يعبرون هم بدورهم عن مشاعرهم بالتصفيق المنتظم أو باستعمال طبلة مثلا . وهؤلاء هم الغلمان الذين كان الابن الأصغر يخشى سخريتهم منه عندما فكر فى العودة . وهم نفس الغلمان أيضا الذين أراد الأب أن يصدهم عنه عندما ركض فى الطريق ، حاملا الحلة الأولى ، وأمر عبيده أن يلبسوه إياها . ولاشك أن الترجمة العربية للكتاب تعتبر دقيقة للغاية فى ترجمتها كلمة pais بمعنى «غلام» وليس بمعنى «خادم» .

عدد ٢٧ : «**فقال له : أخوك جاء فذبح أبوك العجل المسمن لأنه قبله سالماً**» .

وفى هذه العبارة يلخص الغلام أهم أجزاء القصة ، وهى بمثابة تقرير سريع يقدمه ولد صغير يريد أن يتفرغ بعده للعب وللهو فى الشارع . ولكننا نستطيع أن نفهم أيضاً من كلمة «أبوك» أن هذا الغلام لم يكن خادما ، فلو كان خادما لكان قد قال «سيدى» بدلا من «أبوك» ولابد أن الخدم كانوا داخل البيت مشغولين فى إعداد الوليمة للضيوف ، ويبدو أن الإبن الأكبر أراد أن يعرف بنفسه ومن بعيد ماكان يجرى داخل البيت قبل أن يصل إلى هناك .

عدد ٢٨ : «**فغضب ولم يرد أن يدخل . فخرج أبوه يطلب إليه**» .

وهنا نرى الإبن الأكبر غاضباً . صحيح أن أباه كان لايزال يحتفظ بالسلطة فى البيت ، لكن كل ما فى البيت كان — شرعا — ملكا لهذا الإبن الأكبر بمعنى أنه عند وفاة الأب كان كل شىء سيؤول إليه ، وحتى العجل المسمن الذى ذبح أخيراً كان أيضا ملكه ، وربما لهذا السبب شعر أنه لم يكن من حق أبيه أن يذبحه دون إستشارته .

لكن هناك شيئا آخر جديراً بالذكر ، وهو أن الأب فى مثل هذه الوليمة

يجلس عادة مع الضيوف ، بينما ينتظر أن يقوم الإبن الأكبر بخدمتهم طوال الوليمة . والفرق الوحيد بينه وبين سائر الخدم هو أنه يستطيع أن يتجاذب أطراف الحديث مع الضيوف الجالسين فى الوليمة . وبقيام الإبن الأكبر بخدمة الضيوف كأن العائلة فى الواقع تقول للضيوف : «أنتم أيها الضيوف عظماء لدرجة أن أولادنا يقومون بخدمتكم» .

وكان الإبن الأكبر فى البيت هو الذى يقوم بهذه المهمة دائما ، وكان يحرص فى العادة على أن تكون أطباق الطعام أمام المدعوين ممتلئة ، كما كان يلح على الضيوف أن يتناولوا المزيد من الطعام «مراعاة لخاطره» وكان عليه أن يهتم بصفة خاصة بضيف الشرف فى الوليمة ، ولكن ضيف الشرف فى هذه الحالة التى أمامنا هو أخوه ولذلك لم يكن لديه الإستعداد لأن يتحمل مجرد التفكير فى خدمة أخيه .

وفضلا عن ذلك، فقد كان الابن الأكبر بلا شك غاضباً ، لأن الإبن الأصغر قد عاد إلى مركزه دون عقاب ، ولم يكن مفهوم الإبن الأكبر لشرف القرية يسمح له بأن يقبل ذلك . لقد شعر أن كرامة العائلة فى المجتمع قد تلطخت بالعار . ولعله قال فى نفسه إنه إذا كان أبوه يقبل سخرية الناس منه علانية فإن هذا شأنه ، أما هو ــ أى الإبن الأكبر ــ فإنه لا يقبل أن يكون موضوع هزء الناس وسخريتهم . أى أن فكرة المصالحة دون عقاب للمذنب كانت بالنسبة للإبن الأكبر أصعب من أن يتقبلها ، ولذلك رفض رفضاً قاطعا أن يدخل إلى قاعة الوليمة . وكان الضيوف قد حضروا ، وكان الموقف يتطلب ــ كما تحتم تقاليد الريف ــ أن يتقدم أفراد الأسرة لتحية الضيوف ومصافحتهم ، ولاشك أن رفض أى واحد من أفراد الأسرة أن يفعل ذلك كان يعتبر إهانة بالغة للضيف ولرب الأسرة . لكن هذا هو بالضبط مافعله الإبن الأكبر ، أى أنه بذلك تعمد أن يهين أباه علانية .

وهناك موقف مشابه لذلك فى قصة أستير ، عندما استدعى الملك

أحشويروش الملكة وشتى أن تظهر فى وليمة لكى يرى الضيوف جمالها ، وأبت الملكة وشتى أن تأتى «فاغتاظ الملك جداً واشتعل غضبه فيه» . وسرعان ماأصدر حكماء المملكة قرارهم الذى اعتبروا فيه تصرف الملكة مهيناً لسلطة كل الرجال فى بيوتهم ، وأشاروا على الملك بأن يسرع بخلعها ، وبأن يعطى ملكها لمن هى أحسن منها ، لكى تكون عبرة لكل الزوجات ، وهكذا كان يمكن لنا أن نتوقع ، فى هذه الوليمة التى أقامها الأب للإبن الأصغر ، أن يشتعل قلب الأب بغضب مماثل .

وبلغ خبر رفض الإبن الأكبر الدخول إلى الوليمة مسامع الأب ، وسرعان ما انتشر أيضاً بين الضيوف ، إذ ليس ممكناً أن يبقى شيء ما سراً فى القرية . ولاشك أنهم جميعاً اعتبروا تصرف الإبن هذا خروجاً صارخاً على تقاليدهم العائلية ، وتمزيقاً وقحاً لعلاقاتهم وروابطهم وآداب السلوك اللائق بينهم . ومما زاد الموقف خطورة وحرجاً أن كل هذا قد حدث أثناء الوليمة ، ولم يكن تمرد الإبن الأكبر على هذا النحو بأقل شناعة من تمرد الإبن الأصغر من قبل . ولاشك أن التوتر قد ساد جميع الموجودين فى الوليمة ، وكانوا جميعا يترقبون القرار الذى سيتخذه الأب إزاء الإبن الأكبر ، وبالطبع كانوا يتوقعون أنه إما أن يعاقب ذلك الإبن فوراً ، أو أنه سيتجاهله مؤقتا ثم يوقع عليه العقاب الشديد بعد انصراف الضيوف .

وللمرة الثانية فى يوم واحد يكاد تصرف الأب لا يصدق . فلقد أظهر مرة ثانية استعداداً ورغبة لأن يخلى نفسه ويتحمل العار فى سبيل المصالحة . وهذا ما أوجزه المثل وأجمله بالقول : «فخرج أبوه يطلب إليه . وليس من السهل أن نتصور مقدار الصدمة التى انعكست على الوليمة وارتسمت على وجوه الحاضرين عندما رأوا الأب يترك ضيوفه عمداً ، مذلا بذلك نفسه أمام الجميع ، ثم يخرج إلى فناء البيت لكى يتحدث مع إبنه الأكبر ، وذلك بالطبع لأنه كان يحب ابنيه كليهما على قدم المساواة وبلا تفرقة أو تمييز ، بعض النظر عن استجابة كل منهما لهذه المحبة . وهكذا نرى نفس المحبة المضحية المخلية

لنفسها تتجلى بطريقة واضحة فى إتجاهين مختلفين لابنين مختلفين ولحاجتين مختلفتين عند كل منهما عن الآخر . فقد خرج الأب ليقابل إبنه الأكبر لا لكى يعاقبه أو يدينه ، بل لكى يرجوه ويتوسل إليه .

ومع أن كلمة «دعا» (عدد ٢٦) وكلمة «يطلب» (عدد ٢٨) مشتقتان من أصل واحد فى اللغة اليونانية لكن معناهما يختلفان . ففى عدد ٢٦ نرى الإبن الأكبر يستدعى غلاماً لكى يستفسر منه عن بعض المعلومات . وكنا نتوقع أن تستخدم نفس الكلمة من جانب الأب وهو يستفسر من هذا الإبن عن سبب وقاحته العلنية . لكننا نجد أن الكلمة المترجمة «يطلب» فى عدد ٢٨ تعنى أن الأب «توسل» إلى الإبن ، أو «تضرع» إليه ، أو «حاول أن يصالحه» . كما أن كلمة «دعا» فى عدد ٢٦ تفيد الحديث من شخص أعلى إلى شخص أدنى ، وهذا كان موقف الإبن الأكبر من الغلام . بينما كلمة «يطلب» فى عدد ٢٨ تفيد معنى التوسل والرجاء لمن هو ليس أدنى من المتكلم . ويستخدم بولس نفس هذه الكلمة فى ٢ كو ٥ : ٢٠ «نطلب عن المسيح تصالحوا مع الله» إنه من المذهل حقاً أن نرى الأب يختار هذا الأسلوب فى مواجهة الإبن المتمرد ومحاولة مصالحته .

ولاشك أن شعور الأب بمرارة المحبة المرفوضة من جانب الإبن الأكبر كان أقوى ، وذلك بسبب وجود هذا الإبن على مقربة منه . فلقد اضطر الأب أن يخلى نفسه وأن يدفع الثمن غاليا لكى يصالح الإبن الأصغر لنفسه . وها هوذا الآن يدفع نفس الثمن لكى يحاول ان يربح الإبن الاكبر . بل إنه لا يوجد بديل من أن يخرج إلى هذا الابن بنفسه ، فى اتضاع وتوسل ، إذا كان يريد إبنا وليس خادماً إذ أنه لو ارتضى بأن يعامل هذا الابن كخادم لما كلف نفسه كل هذا العناء ، فلقد كان يستطيع أن يأمر بإدخاله إلى البيت وضربه ضرباً شديداً ، لكنه لو فعل ذلك لسبب مرارة أعظم ونفوراً أشد . ولو أنه أغفل الأمر تماماً لانتهى مركزه كأب . فإن الإبن فى هذه الحالة كان سيزداد تماديا فى التمرد والعصيان . ولذلك لم يكن هناك مناص من أن يتصرف الأب على النحو

الذى تصرف به ... أو ليس هذا حقاً هو نفس ما يفعله الله المحب مع الإنسان الخاطىء ؟

عدد ٢٩ ، ٣٠ **«فأجاب وقال لأبيه ها أنا أخدمك سنين هذا عددها وقط لم أتجاوز وصيتك وجدياً لم تعطنى قط لأفرح مع أصدقائى.ولكن لما جاء ابنك هذا الذى أكل معيشتك مع الزوانى ذبحت له العجل المسمن»** .

من هذه العبارات نستطيع أن نرى أن الإبن الأكبر يدين نفسه بنفسه . فهو بهذا الخطاب القصير قد لخص فجأة حياته كلها . ونستطيع أن نستخلص من كلامه عدة حقائق جديرة بالدراسة والتأمل :

١ ـــ فهو يرفض الإعتراف بأية مسئولية من جانبه عن خسارة الإبن الأصغر . وبينما نجد أن المرأة التى أضاعت الدرهم ، والإنسان الذى أضاع الخروف ، والأب الذى ضل أصغر ابنيه ـــ بينما نراهم جميعاً وقد تألم كل منهم بطريقة خاصة ، وتعب وجاهد حقاً لكى يجد ضالته ، إلا أننا نرى أن الإبن الأكبر لم يبذل مثل هذا الجهد ، ولم يعترف بمثل هذه المسئولية .

٢ ـــ وهو يتمرد ويثور على أبيه . وهو بكلامه هذا قد أهان أباه للمرة الثانية فى أمسية واحدة ، ذلك لأنه لم يخاطب أباه بالقول : «ياأبى» . وهى عبارة لازمة لو أن هذا الإبن كان يحترم أباه . ولابد أنه تعمد إغفالها . ولقد كان الإبن الأصغر متمرداً ، لكنه حرص على أن يبدأ كلامه مع أبيه بهذه العبارة ، بينما نجد أخاه الأكبر متمرداً ، ولا يبالى أيضاً باحترام أبيه ، كما أنه لم يكن يدرك أنه متمرد . ولذلك نسمعه يقول : «لم أتجاوز وصيتك» .

٣ ـــ إن هذا الإبن الأكبر لم يكسر وصية ، لكنه حطم علاقة . فلقد أطاع الوصايا حرفياً ، لكننا نراه الآن يكسر قلب أبيه ويحزنه . فهو يقول : «جدياً لم تعطنى قط لأفرح مع أصدقائى» . وواضح أن أباه وأخاه لم يكونا بين أولئك الأصدقاء الذين كان يريد أن يفرح معهم .

٤ ـــ وهو يرفض الشركة مع أبيه . فإن طلبه يحمل نفس نغمة طلب أخيه فى

البداية : «أعطنى القسم الذى يصيبنى» . أى أن هدفه هو أن يأخذ من أبيه ، وليس أن يكون شريكا له . ولقد كان الإبن الأكبر يمتلك نصيبه بالفعل ، ولكنه غضب لأنه كان يريد أن يكون نفوذه فى البيت بلا حدود وبلا منازع .

٥ ــ كما نلاحظ من كلام الإبن الأكبر أنه كان يحتقر أخاه . فلم يشأ أن يدعوه «أخى» ، بل أشار إليه بالقول : «إبنك هذا» . ثم نراه أيضاً يختلق تهماً وأفعالا يكيلها لأخيه وينسبها إليه . فإن الإبن الأكبر كان قد عاد لتوه من الحقل ، ولم يكن قد عرف شيئاً بعد عن ماضى أخيه الأصغر . ومع ذلك نراه يتهم أخاه بأنه كان يعيش مع الزوانى وهنا نرى الإبن الأكبر وقد أقر بنفسه بما لم يكن يريد الاعتراف به . فهو بعبارة «أكل معيشتك» ينكر على الإبن الأصغر حقه فى أن يتصرف كيفما يشاء فى نصيبه الذى كان قد أخذه من أبيه فى البداية . وفى نفس الوقت نراه يشكو لأنه ، أى الإبن الأكبر ، لم يكن يتمتع بحرية كاملة فى أن يتصرف فى نصيبه هو حسبما يريد . وهكذا نراه يرفض الترحيب بعودة أخيه إلى البيت ، كما يرفض التصالح معه . كما أنه لا يريد ان يفرح أو يقدم له الإحترام اللائق بضيف الشرف .

٦ ــ وهو يعتبر علاقته مع أبيه علاقة خادم بسيد . ولذلك نسمعه يقول : «ها أنا أخدمك سنين هذا عددها . وقط لم أتجاوز وصيتك» . أى أنه لم يهمل فى واجب أو يقصر فى شىء كلف به . وبعبارة أخرى كان يعتبر أن كل مسئوليته تنحصر فى قيامه بالعمل الذى يكلفه به أبوه . وأنه نظير ذلك يستطيع أن يطالب بحقوقه كخادم يستحق مكافأة معينة على قيامه بالعمل لمدة ساعات معينة . وبحسب وجهة نظره لم يشتغل الإبن الأصغر شيئاً على الإطلاق ، ولذلك لم يكن يستحق أية مكافأة . وهذا مايفهم من كلامه الذى يحمل نغمة السخرية . فكيف يقبل أنه ، وهو الخادم العامل بجد ، لا يأخذ حتى جديا ، بينما أخوه الأصغر الكسول يأخذ العجل المسمن . أليس هذا منتهى الظلم والقسوة ؟؟!!

إن الخادم ينفذ الأمر والوصية ، أما الإبن فإنه يتجاوب مع المحبة . لكن

الإبن الأكبر اختار أن ينفذ الأمر والوصية كالخادم ، ولذلك كان يبحث عن المكافأة ويطالب بها .

٧ ـــ إن الإبن الأكبر يحتاج إلى غفران أبيه وإلى غفران أخيه الأصغر . فمع أنه كان يظن أنهما كان ينبغى أن يعتذرا له ، لكن الحقيقة أنه هو الذى كان يحتاج إلى مسامحتهما إياه . ولقد كانت عدم رغبة الإبن الأكبر فى أن يتصالح مع أخيه سبباً إضطره إلى قطع الشركة مع أبيه . وهذا هو عين ماأشار إليه المسيح فى الصلاة الربانية ، وهو أيضاً ما يتضح لنا من هذا المثل . فإن الشخص الذى لا يستطيع أن يعيش فى محبة وتسامح مع أخيه ، لا يستطيع أن يعيش فى دائرة الشركة والمحبة العائلية ، وبالتالى فهو لا يستطيع أن يعيش فى شركة مع أبيه .

٨ ـــ كما يمكننا أن نقول إن قلب الإبن الأكبر هذا ملىء بالحسد والكبرياء والمرارة والسخرية والغضب والسخط والاعتداد بالذات والكراهية والخسة والغرور والبر الذاتى . ومع كل هذا فربما كان يعتبر تصرفه هذا دفاعاً لازماً عن الكرامة والشرف .

ولم يكن حديث الأب مع الإبن الأكبر حديثاً خاصاً بينهما ، تماما كما كان الحديث الأسبق بينه وبين الإبن الأصغر . فلاشك أن عدداً من الخدم وبعض الضيوف خرجوا مع الأب ، ثم إلتف حولهم جماعة من المارة غير المعروفين الذين وقفوا يتفرجون . ولابد أن عدداً كبيراً من أولاد القرية وقفوا أيضا ينصتون . ومن المؤكد أن الإبن الأكبر وجد الفرصة سانحة ، وهو يعلم أن كل كلمة يقولها سوف تتردد على كل لسان فى كل بيت من بيوت القرية ، ليعزز موقفه أمام الجميع .

عدد ٣١ ، ٣٢ **«فقال له يابنى أنت معى فى كل حين وكل مالى فهو لك . ولكن كان ينبغى أن نفرح ونسر لأن أخاك هذا كان ميتا فعاش وكان ضالا فوجد»** .

وهنا نرى الأب يغض الطرف عن تعمد الإبن الأكبر مخاطبته له بدون

ألقاب ، كما يغض الطرف عما فى قلب هذا الإبن من مرارة وعجرفة وكبرياء ، وعن تحريفه للحق وسخريته بأخيه واتهاماته غير الصادقة له . وبدلا من أن يدين الأب ابنه الأكبر أو ينتقده أو ينبذه نراه بالحرى يغمره بمحبة متدفقة . فإن كلمة «بنى» التى يخاطبه بها فى عدد ٣١ — وهى فى اليونانية كلمة teknon — ليست هى نفس الكلمة العادية المترجمة إبن فى الأعداد ١١ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٠ . إذا أن كلمة إبن المستخدمة فى هذه الأعداد هى كلمة (uios) أما كلمة «بنى» (teknon) المستخدمة فى عدد ٣١ ولأول مرة فى القصة فهى كلمة خاصة تفيد المحبة والعاطفة الشديدة . وهى نفس الكلمة التى استعملتها مريم عندما وجدت يسوع فى الهيكل وقالت له : «يابنى (teknon) ، لماذا فعلت بنا هكذا ؟» لو ٢ : ٤٨ .

ولم يكن الأب قد استخدم هذه الكلمة الخاصة عندما أمر عبيده أن يلبسوا إبنه الأصغر الحلة الأولى ، لكنه يستخدم هذه الكلمة هنا فى حديثه مع الإبن الأكبر . ونراه يصحح كلمة واحدة فقط فى كلام هذا الإبن ، فيذكره بكل لطف أن هذا الذى كان ضالا فوجد هو «أخوك» . ومن المؤسف أن الأب فى بقية حديثه يضطر إلى شرح سبب الفرج والسرور — الأمر الذى كان ينبغى أن يكون واضحاً دون حاجة إلى شرح . فهل اضطر صاحب المئة خروف أن **يشرح** لجيرانه وأصدقائه لماذا كان سعيداً عندما وجد الخروف الضال ؟ وهل اضطرت المرأة صاحبة الدراهم العشرة أن **تجادل** مع صديقاتها لتقنعهن بأن يفرحن معها لعثورها على الدرهم الذى أضاعته ؟ .. ولكن هذا هو ما اضطر أن يفعله !

ومن هنا نرى كم كان أمراً محزناً وغير طبيعى أن يتذمر الفريسيون والكتبة فى بداية القصة قائلين إن يسوع كان يقبل خطاة ويأكل معهم .

ولم يكمل المسيح المثل بل تركه هكذا معلقاً . وتصل ذروة الرواية كلها إلى هذا المشهد المتوتر فى فناء البيت . ولم يكن ضيوف الوليمة داخل البيت أقل

توتراً ، بل إنهم كانوا يترقبون فى قلق بالغ ما سوف ينتهى إليه الإبن الأكبر ، وهل سيبقى متمرداً خارج البيت أم أنه سيتضع ويدخل . لكن الرواية تقف عند هذا الحد ، ولا يذكر المسيح شيئاً عن نهايتها . ومن الواضح أنه قد تعمد حذفها . ولسنا نظن أن هناك تعليلا لذلك سوى أن المسيح كان بهذا المثل يخاطب جماعة من الخطاة المتدينين الذين كانوا مبدئياً مسئولين عن صلبه . لكن كانت لا تزال أمامهم فرصة العودة إلى الآب ، ممثلة فى يسوع المسيح . كما كان فى إمكانهم ، إذا قسوا قلوبهم ، أن يرفضوا محبته ، وبذلك يزيدون آلامه . بل إننا نستطيع أن نتصور نهاية القصة على النحو التالى :

«وعندئذ ثار الإبن الأكبر ، وفى غضب عظيم ، أمسك بعصاة وضرب أباه » . أى أن الصليب كان هو خاتمة القصة . وربما ترك المسيح المثل هكذا ناقصاً لأن أحداث الصليب لم تكن قد وقعت بعد .

هــذا الكتـــاب

دراسة عميقة تبين العلاقة بين قصة الابن الضال والتى تبين محبة الله للإنسان والصليب الذى هو قمة الحب .